انتشار الإسلام في بلاد البجة وآثاره الاقتصادية

الدكتور / ربيع محمد القمر الحاج*

مستخلص

تتناول هذه الورقة موضوع انتشار الإسلام في بلاد البجة وأثرة على حياتهم بصورة عامة، مع تسليط الضوء بصورة رئيسيه على تأثر الإسلام والمسلمين على أوضاعهم المعيشية والاقتصادية. وتتبع أهمية الورقة من خلال الموقع الاستراتيجي لمناطق البجة وهى تمتد من الصحراء الشرقية جنوب مصر وتمتد إلى ساحل البحر الأحمر، كما أن منطقة البجة تعتبر منطقة تداخل سكاني نسبة لكثرة الطرق البرية، وأن ساحل وشواطئ البحر الأحمر كانت أكبر نافذة لدخول العرب وغيرهم لتلك المنطقة. وسيركز الباحث على دراسة البجة من حيث الأصول العرقية والإثنية وأهم طرق التجارة وأهم الصادرات والواردات ودور العرب والمسلمين في إحداث نقلات حضارية كبيرة عبر مئات السنين في تلك المنطقة عبر الجهود الرسمية وغير الرسمية من قبل المسلمين. وقد اتبع الباحث عدة مناهج للوصول إلى أهداف البحث مثل المنهج التاريخي والوصفي والتحليلي وقد توصل الباحث إلى عدة نتائج تدعم فرضيته في حقيقة تأثير الإسلام والمسلمين على واقع البجا على النواحي الاجتماعية والسياسية والاقتصادية بصورة أساسية.

* باحث متخصص في الدراسات الإفريقية

Abstract:
The Economic impacts of the Spread of Islam on the Bija land
This paper concerns with the spread of Islam in the Bija lands and its impact of their life, specially the economic life. The importance of this study came from the strategic site of the Bija land, which extended from the eastern desert south of Egypt to the shores of the Red Sea. This land also witnessed population interaction due to the number of land routes crossing the area. The study concentrates on ethnic origins of the Bija, the most important trade routes, the most important exports and imports, and the role of Arabs and Muslims in creating civilization changes in the area.

مقدمة:

عرف العرب في العصور الإسلامية الأولى القبائل التي تسكن الصحراء الشرقية جنوبي مصر باسم البجة، وإن اختلف المؤرخون في نسبتهم، فينسبهم بعضهم إلى"حام بن نوح عليه السلام"(١) في حين يرى آخرون أنهم صنف من الحبشة، أو قبيلة منهم(٢)، وقيل بل هم من "ولد كوش بن كنعان بن حام نزلوا بين بحر القلزم والنيل فتشعبوا شعوباً وملكوا ملوكاً"(٣) في حين ورد رأي آخر يقول "إنهم من بني فزارة نفاهم أبوبكر الصديق – رضي الله عنه– فنزلوا عيذاب"(٤).

أما اليعقوبي فيرى أنهم من جنس يقال له نفيس، مضيفاً أن لهم بطوناً وقبائل كما تكون للعرب، ثم يفصل "ومن هذه البطون انحدارت، وحجاب، والعمائر، وكرفي، ومناسبة، ورسفه، وعريريعة والزنافج"(٥).

أما الباحثون المحدثون فبرغم اتفاقهم في رد البجة إلى أصول حامية إلا أنهم اختلفوا في نسبتهم حيث يرى البعض أنهم هم (البقة) "BUKA" المدونون على الآثار المصرية، أو البقيته المدونون على آثار أكسوم(٦)، في حين يرى آخرون أنهم

من سلالات مصرية وذلك من خلال المقارنة والدراسات التي بنيت على أشكال وجماجم قدماء المصريين وملوكهم مقارنة بين أشكال وجماجم البجة الذين يعيشون في أوطانهم الحالية(٧).

وبمناقشة هذه الآراء يمكن القول أن ردهم إلى كوش بن كنعان أو ردهم إلى حام بن نوح يعني أنهم حاميون فهم بذلك من أصل واحد، أما رد أصولهم إلى بني فزارة وحادثة نفى أبو بكر الصديق لهم إلى عيذاب فهو قول مخالف لكثير من النصوص والوقائع التاريخية التي تثبت أن البجة عرفوا كقبائل تسكن في هذه المنطقة قبل تولية أبي بكر الخلافة سنة ١١هـ(٨)، بل إن وجودهم أقدم من ذلك بكثير ويعود إلى آماد بعيدة.

أما الخلاف بين الباحثين المحدثين في أمر تسميتهم فيمكن القول إن الباحثين الغربيين قد أخذوا هم تسمية في حين أخذ غيرهم تسمية أخرى.

ومهما يكن من أمر هذه الدراسات فإن الرأي الراجح أن القبائل التي ظلت تسكن الصحراء الشرقية جنوبي مصر وعرفها المؤرخون المسلمون باسم البجة هي قبائل حامية، بيد أن ذلك لم يمنع من تداخل نسب من الدماء العربية، والمصرية،والحبشية،والنوبية في أعراقهم بسبب المصاهرة، وهم بذلك أمة من أمم السودان(٩).

على أن بعض الكتاب والمؤرخين القدماء أطلق على بعض القبائل التي سكنت في المنطقة بين النيل والبحر الأحمر جنوبي مصر _ وهي المناطق المعروفة بأرض البجة _ اسم (بليميين، BLEMMYE) ، بل تزخر الوثائق والمؤلفات اليونانية والرومانية القديمة بأخبار الصراع المرير بين الرومان في مصر وبين هؤلاء البليميين(١٠)، وأهم مصدر يشير إلى هذا الصراع الذي انتهى بطرد هؤلاء

البلميين في حوالي منتصف القرن السادس الميلادي نقش الملك سكلو على جدران معبد كلابش، حيث حاربهم هذا الملك وطردهم إلى مواطنهم الأصلية في الصحراء الشرقية[١١] كما عرف المؤرخون والجغرافيون المسلمون هؤلاء البلميين ووردت عدة إشارات عنهم في كتاباتهم، يقول الإدريسي: "وبين أرض النوبة وأرض البجة قوم رحالة يقال لهم البلمييون، ولهم صرامة وعزم، وكل من حولهم من الأمم يهادنوهم، ويخافون ضرهم"[١٢] ثم يضيف في معرض حديثه ووصفه لمدينة أسوان" وربما أغار على أطرافها خيل السودان المسمون بالبلميين، ويزعمون أنهم روم وأنهم على دين النصرانية من أيام القبط، وقبل ظهور الإسلام،غير أنهم خوارج في النصارى اليعاقبة، وهم متنقلون فيما بين أرض البجة وأرض الحبشة، ويتصلون بأرض النوبة، وهم رحالة ينتقلون ولا يقيمون بمكان، مثل ما تفعله لمتونة الصحراء الذين هم بالمغرب الأقصى"[١٣] ، على أن ابن الوردي يضيف لما ذكره الإدريسي عن هؤلاء البلميين فيقول "وبين البجة والنوبة، قوم يقال هم أهل عز وشجاعة يهابهم كل من حولهم من الأمم، ويهادوهم، وهم نصارى خوارج على مذهب اليعقوبية"[١٤].

وبدراسة هذه النص يخرج الباحث بعدة احتمالات في نسبة هؤلاء البلميين، منها أنهم من قبائل البجة، وأن الاسم لم يكن عاماً شاملاً لجميع سكان الأقاليم التي سكنتها البجة، في مختلف العصور والأزمنة، وإنما انصرف إلى شعبة أو أكثر من أؤلئك البجة، ولا سيما القريبين من الحدود الجنوبية لمصر، وهم الذين سيطروا على مناجم الذهب والزمرد في الصحراء الشرقية، كما يرجح أن يكون هؤلاء البلمييون بما لديهم من خبرات آلية جديدة، وصفات حربية ممتازة، قد سيطروا على مجموعات كبيرة من البجة مدة طويلة واستعانوا بهم على تحقيق مصالح اقتصادية وحربية

توسعية كبيرة، ولما اضطرب سلطانهم، وتقلص نفوذهم، اشتهر الاسم من جديد وأصبحوا يعرفون بالبجة.

كما يتضح من دراسة هذا النصوص أنهم من جنس السودان، وأن مواطنهم تقع بين النوبة، وأرض الحبشة، وأنهم من البدو غير المستقرين.

حدود وجغرافية بلاد البجة

أما عن موقع أوطان البجة فإن المؤرخين والجغرافيين المسلمين قد وصفوا ذلك بشكل دقيق فذكروا أنها تقع "بين بحر القلزم وبحر النيل"(١٥) وبينوا أن آخر بلادهم من جهة الجنوب هي بلاد الحبشة(١٦)، أما في جهة الغرب فتقع بلاد النوبة الذين تفصلهم عن بلادهم جبال منيعة(١٧).

هذا وقد فصل أحدهم في تحديد موقع بلاد البجة فقال: "وفي الشرق من بلاد النوبة البجة، ما بين النيل وبحر اليمن وبحر القلزم"(١٨).

ويغلب بهذا أن تكون أوطانهم تمتد من أسوان شمالاً إلى أطراف هضبة الحبشة الشمالية جنوباً، ومن سواحل البحر الأحمر شرقاً، إلى حوض نهر النيل غرباً، لكنها تختلف من حيث تضاريسها من موقع لآخر، حيث تتخللها سلاسل جبلية ممتدة من الجنوب إلى الشمال، موازية وملاصقة للبحر الأحمر أحيانا، ولا تترك بينها وبينه سوى شريط ساحلي ضيق على طول امتدادها وأن لم يكن سهلاً ساحلياً بالمعنى الأتم، بل تأخذ شكل منحدرات تتجه صوب البحر، على أن هذا الشريط الساحلي يضيق كلما اتجه جنوباً، بمعنى أن الأجزاء المتاخمة للحدود المصرية أوسع من أجزائه الجنوبية المتاخمة للحدود الحبشية، وتتباين ارتفاعات هذه الجبال فتصل في بعض المواضع إلى ألفي متر، كما هو الحال في الكتلة المرتفعة

الواقعة بين خطي عرض ٢٠ و ٢٢ شمالاً، حيث تبلغ هذه السلاسل قمة ارتفاعها ووعورتها[١٩].

وتتخلل هذه السلاسل الجبلية بعض الوديان الخصيبة، مثل: وادي العلاقي[٢٠] في الشمال، وخور بركة في الجنوب، فضلاً عن بعض الوديان الأخرى المتناثرة في الصحراء[٢١].

هذا وقد ظلت هذه القبائل تمتهن حرفة الرعي وتتبع مناطق القطر مظان الكلأ في بواديها معتمدة في ذلك على سهل البطانة[٢٢]، وهو أغزر أراضيهم مطراً وأخصبها تربة[٢٣]، أما بقية أوطانهم فيغلب عليها الجفاف بصفة عامة، فهي إذن بيئة جدبة تدعو إلى العزلة لقسوتها،وفي هذه البيئة القاسية عاشت قبائل البجة منذ أقدم العصور، فكانت حياتهم تعتمد على الإبل في سلمهم وحربهم وحلهم وترحالهم.

علاقات البجة الخارجية قبل الإسلام

ليس من اليسير على الباحث أن يحدد تاريخاً معيناً لبداية العلاقة بين الجزيرة العربية وبلاد السودان بوجه عام، والمناطق الممتدة على الساحل الشرقي للبحر الأحمر بوجه خاص، بيد أن هناك إجماعاً عاماً بين الجغرافيين والمؤرخين والباحثين المهتمين بأمر هذه العلاقة على أنها موغلة في القدم تعود إلى آماد بعيدة، قبل بعثة النبي ﷺ، وهذه حتمية تؤيدها الحقائق الجغرافية والروايات التاريخية، ذلك أن البحر الأحمر لم يكن يمثل في أي وقت من الأوقات حاجزاً يمنع الاتصال بين سواحله الآسيوية العربية، وسواحله الإفريقية. حيث لا يزيد اتساع البحر على المائة والعشرين ميلاً في بعض أجزائه، وهذا ما جعل اجتيازه بالسفن الصغيرة أمراً ممكناً وميسوراً منذ فترة طويلة[٢٤].

وفي سواحله الجنوبية يضيق البحر الأحمر لدرجة كبيرة عند بوغاز باب المندب حتى لا يزيد على عشرة أميال، وهو الطريق الذي سلكته السلالات والأجناس إلى الساحل الشرقي للبحر الأحمر منذ عشرات الآلاف من السنين[٢٥].

وتذهب بعض الروايات إلى أن بعض المصريين القدماء كانوا عرباً هاجروا من الجزيرة العربية عبر البحر الأحمر عن طريق ميناء مصوع[٢٦] وتابعوا سيرهم شمالاً إلى مصر، وأن بعض المعابد التي بنيت هناك إنما بنتها جاليات عربية وصلت إلى مصر في وقت غير معروف تماماً، كما وجدت آثار لجاليات عربية كبيرة تسكن المنطقة المحاذية للنيل من أسوان شمالاً إلى مروي جنوباً[٢٧].

وقد دلت الأبحاث الأثرية، والتاريخية على أن هجرات عربية قدمت من جنوب الجزيرة واليمن عبر البحر الأحمر يعود تاريخها إلى القرن الخامس قبل الميلاد، وثبتت بعض هذه الجاليات العربية أقدامها في بعض جزر البحر الأحمر مثل دهلك[٢٨] منذ عدة قرون قبل الإسلام، وتذهب إحدى المصادر إلى أن هناك حملات عسكرية قام بها الحميريون في وادي النيل الأوسط وشمال إفريقيا، وتركت هذه الحملات وراءها جماعات استقرت في بلاد البجة، وأرض النوبة وشمال إفريقيا، وتشير هذه الروايات إلى حملة قادها أبرهة ذو المنار بن ذي القرنين الحميري على السودان وبلاد النوبة والمغرب في أوائل القرن الأول قبل الميلاد ، ثم حملة قادها ابنه إفريقيش إلى شمال إفريقيا، وقد داخلت تلك الجماعات المهاجرة الوطنيين من أصحاب تلك البلاد التي هاجروا إليها، وأصبح لهم وجود معتبر فيها، ولعل وجود العمامة ذات القرنين بالإضافة إلى عدد من القرائن الأخرى تدل على ذلك الوجود الحميري المبكر، ومما يعزز هذا الأمر الإشارات الدالة على وجود جماعات من الحضارمة عبروا البحر الأحمر إلى ساحله الإفريقي في فترة مبكرة، ثم اختلطوا

بالبجة وكونوا طبقة حاكمة خضع لها البجة، وقد عرفوا عند العرب بالحدارية، كما استقروا في الشمال، ثم اضطروا إلى الانتقال جنوباً حيث أسسوا مملكة هناك(٢٩).

ومن المعلوم أن التجارة كانت أهم وسيلة لهذا الاتصال النشيط بين سواحل البحر الأحمر الغربية والشرقية، حيث نشطت تجارة الصمغ، والعاج، واللبان والذهب بين الجزيرة العربية من ناحية وبين المواني الإفريقية المطلة على الساحل الغربي من ناحية أخرى، وقد بلغت هذه الحركة مداها في عهد دولتي سبأ ومعين، وحمل المعينيون والسبيئون لواء التجارة في البحر الأحمر ووصلوا في توغلهم غرباً إلى وادي النيل، كما عبرت جماعات كبيرة من الحميريين مضيق باب المندب فاستقر بعضهم في بلاد الحبشة، وحول ساحل البحر في حين تتبع البعض الآخر النيل الأزرق ليصلوا عن هذا الطريق إلى بلاد النوبة، مما يدل على أن التجار المسلمين قد استفادوا فيما بعد من معرفة ودراية هؤلاء التجار بالطرق التجارية الأمر الذي مكنهم من التوغل في منطقة وادي النيل وزيارة الممالك الموجودة هناك وإقامة علاقات تجارية واسعة مع حكامها وأهلها ومع التجار الأحباش والمصريين والنوبيين وغيرهم(٣٠).

أما عن صلات البجة بمصر فقد كانت لقبائل البجة بحكم امتداد مواطنها داخل الحدود المصرية واستقرار بعضها على السواحل الغربية للبحر الأحمر صلات قديمة بمصر في مختلف عصورها، مثلت التجارة، والأمن، والمصالح المشتركة الأخرى أهم معالمها، بيد أنها لم تكن صلات ودية مستقرة دائماً، بل كثيراً ما كان يشوبها التوتر والاضطراب حيث ظلت أرض العلاقي وهي أشهر مناطق تعدين الذهب ببلاد البجة مناطق جذب لفتت أنظار المصريين منذ عهود الفراعنة، كما ظل صعيد مصر وحدودها الجنوبية بعامة المناطق الزراعية الخصبة حول مدينة أسوان بخاصة

مناطق جذبت قبائل البجة بحثاً عن الحبوب الغذائية والخضر والفواكه والملبوسات فكانت هذه الحاجات – حاجة المصريين للذهب وحاجة البجة للحبوب الغذائية – محور العلاقات التي غالبا ما كان يسودها التوتر في منطقة الحدود الأمر الذي ظل يهدد الطريق التجاري القديم الواصل بين شمال وادي النيل وجنوبه[٣١].

هذا وقد كانت علاقة البجة بممالك النوبة النصرانية في وادي النيل[٣٢] مثلها مثل العلاقة مع مصر تماماً، فكثيراً ما كانت البجة تغير على أطراف مملكة النوبة لأجل السلب والنهب ولاسيما عند اشتداد حاجتها لذلك في مواسم الجفاف والقحط الذي يصيب الوديان التي يعتمدون عليها، وكانت أغلب غاراتهم تلك تتوجه صوب أطراف مملكة المقرة[٣٣]، لنهب الحبوب الغذائية والمحاصيل المختلفة، فهي بهذا لم تكن ترمي لتحقيق نصر عسكري حاسم يهدف لضم مملكة المقرة لبلاد البجة بشكل نهائي، ويبدو أن النوبيين لم يكونوا يكترثون كثيراً للهجمات البجاوية على أطراف مملكتهم، إلا أن ذلك لم يمنع من نشوب مواجهات بين الطرفين أحياناً[٣٤].

على أن تلك الصلات مجتمعة مع مصر شمالاً والجزيرة العربية شرقاً والنوبيين في حوض النيل غرباً والأحباش جنوباً، لم تكن قبل مجيء الإسلام ذات أثر واضح وتأثير بيّن على حياة البجاويين لا من حيث المعتقدات الدينية ولا من حيث الثقافة أو اللغة أو السياسة، بسبب أنها لم تحمل عقيدة واضحة ولم تكن تنشد أهدافاً محددة لذا ظلت معظم قبائل البجة من حيث المعتقد على وثنيتها حتى مجيء الإسلام، سوى نفر قليل منهم تنصر بفعل الأثر المصري أو النوبي المحدود في هذا المجال، لاسيما وعلاقة البجة لم تكن مستقرة تماماً مع مصر أو مع ممالك النوبة النصرانية[٣٥]، مما يمكن من تسرب العقيدة النصرانية وانتشارها بين البجاويين على نحو واسع.

الفتح الإسلامي لمصر وأثره على بلاد البجة

وردت أول إشارة للبجة بعد ظهور الإسلام في كتاب فتوح الشام للواقدي، حيث ذكر أنه "لما حاصر عمرو بن العاص (رضي الله عنه) مدينة بلبيس، وكانت بها أرمانوسة ابنة المقوقس الحاكم البيزنطي في مصر، أشار أهل الرأي على المقوقس أن يرسل نجدة بيزنطية إلى مدينة بلبيس لإنقاذ ابنته، ثم يطلب مساعدة البجة، وملك النوبة، وملك البرابرة لحرب العرب وطردهم من مصر"[٣٦]، ويمضي المصدر مبيناً أن أرسطوليس حذر العرب من الطمع في مصر، لأن البيزنطيين قوة لا يستهان بها، وأنهم لا يحاربون وحدهم بل يحارب معهم حلفاؤهم من النوبيين، والبجة، وأخذ أرسطوليس يطمئن جنوده عن قرب وصول حلفائهم من النوبيين والبجة[٣٧]، لكن الأخبار وردت للملك باندلاع قتال بين الطرفين – النوبي والبجاوي – مما يعني عدم تمكنهم من إرسال نجدة له.

ولما استقر الوضع في مصر لعمرو بن العاص (رضي الله عنه) تبين من خلال العهد الذي كتبه للمصريين، مشاركة النوبيين في القتال مع البيزنطيين إما بدعم حربي مباشر أو بدعم غير مباشر، مما حدا بعمرو بن العاص أن يشير في هذا العهد إلى النوبيين، وإلى ما ألزموا به في حالة قبولهم الالتزام ببنوده، في حين أنه لم ترد أي إشارة تخص البجة، بل لم يرد ذكرهم مطلقاً، وفي هذا تفنيد للزعم القائل بأن مشاركة بجاوية قد تمت بتقديم "١٢٠٠ فيل محملة بالرجال المسلحين إلى حكام الصعيد الأعلى للدفاع عنه ضد العرب"[٣٨]، فبنود المعاهدة التي وقعت لأهل مصر قد شملت النوبيين وتلخصت أهم عناصرها في الآتي:

١-إعطاء الأمان لأهل مصر على أنفسهم، وأموالهم، وكنائسهم، وممارسة شعائرهم الدينية في حرية تامة.

٢-فرض الجزية على أهل مصر إذا ارتضوا هذا الصلح.

٣-على الروم، والنوبة، الذين دخلوا في هذا الصلح وارتضوه أن يلتزموا بمثل ما التزم به المصريون، ومن لم يرغب فهو آمن حتى يخرج من ديار المسلمين ويبلغ دياره.

٤-على النوبيين الذين استجابوا للصلح والتزموا بشروطه دفع قدر معين من الجزية للمسلمين.

٥-ألا يتعرض النوبيون للتجار، وللقوافل التجارية، وللطريق التجاري الواصل بين مصر والنوبة بسوء، إذ ظل هذا الطريق عُرضة لغارات النوبة المتتالية.

ويتضح من ذلك أن النوبيين قد واجهوا المسلمين بالعداء منذ أن وطأت أقدامهم مصر، ولعل السبب في ذلك يعود إلى عوامل دينية معادية للإسلام، خاصة بعد الانتصارات التي أحرزها المسلمون على بيزنطة النصرانية في مصر، ويبدو أن النوبيين – وعلى الرغم من إخضاع مصر رسمياً للحكم الإسلامي – لم يستكينوا بل قاموا بمباغتة المسلمين بالهجوم، ومفاجأتهم بالقتال انتقاماً وثأراً لما حل بأهل ديانتهم في الشمال، وحماية لأنفسهم، قبل أن يوجه المسلمون أنظارهم إليهم فأخذوا يشنون غاراتهم المتتالية على جنوب مصر، مسببين إزعاجاً شديداً وإنهاكا مستمراً للحامية الإسلامية المرابطة هناك، الأمر الذي جعل عمرو بن العاص – رضي الله عنه – يوجه سرايا صوب بلادهم، لوضع حد للهجوم النوبي المستمر. وتنفيذاً لتوجيه الخليفة عمر بن الخطاب – رضي الله عنه –[٣٩]، دخلت فرقة منهم بقيادة عقبة بن

نافع الفهري أرض النوبة سنة ٢٤هـ / ٦٤٠م، قاومها النوبيون مقاومة عنيفة، فكانت خسارة المسلمين كبيرة في هذه المعركة[٤٠].

ولما عزل عمرو بن العاص – رضي الله عنه – عن مصر، وتولى عبدالله بن سعد بن أبي السرح – رضي الله عنه [٤١]– ولايتها سنة٢٥هـ، سير حملة قوية تجاه بلاد النوبة قادها بنفسه[٤٢]، حاصر فيها النوبيين في عاصمتهم دنقلة[٤٣]، وانتهى الأمر بتوقيع معاهدة عرفت بمعاهدة البقط، وكان ذلك سنة ٣١هـ، ولما فرغ عبدالله بن سعد من توقيع هذه المعاهدة، وقفل راجعاً إلى مصر بجنده تجمعت له أعداد من البجة على شاطئ النيل، فسأل عنهم فذكر له أنهم "ليس لديهم ملك يرجعون إليه، فهان عليه أمرهم فتركهم فلم يكن لهم عقد ولا صلح"[٤٤]، ولكن الباحث يتساءل عن سبب إهمال عبدالله بن سعد للبجة، وعدم تسيير جيوشه وجنده صوب بلاد البجة على النحو الذي تم مع النوبيين؟ والإجابة عن ذلك تحتمل عدة وجوه، منها: أن المسلمين لم يكونوا يطمعون أصلا في فتح بلاد النوبة في هذه المرحلة، وإنما كانوا يهدفون لصد النوبيين، وحماية حدود مصر الجنوبية من غاراتهم المتكررة، حيث إن أولوياتهم كانت موجهة في هذه المرحلة لتثبيت الحكم الإسلامي الوليد في مصر وتأمينه من التهديدات البيزنطية التي ظلت تشكل خطراً كبيراً ومستمراً على سواحل البحر المتوسط، وفي شمال إفريقية على حدود مصر الغربية، وتبعاً لذلك فإن عبدالله بن سعد قد رأى أن أي جهد عسكري إضافي في الجنوب بخلاف تأديب النوبيين سيحرمه من القوة اللازمة في الشمال، بدليل أنه لم يكد يفرغ من توقيع الاتفاق مع النوبيين حتى عاد إلى مصر للدفاع عن سواحلها، واشتبك بعد فترة وجيزة مع البيزنطيين في معركة ذات الصواري المشهورة[٤٥]، ومن الواضح أيضا

أن البجاويين لم يشكلوا خطراً على حدود مصر الجنوبية حتى ذلك الوقت، الأمر الذي يضطر المسلمين لتسيير حملة مباشرة لإيقافه، أو الحد منه.

وبالنظر في نصوص العهد الذي كتبه عبدالله بن سعد للنوبيين، يمكن القول أن هناك إشارات غير مباشرة تخص وضع قبائل البجة، وردت ضمن نصوص المعاهدة، أما الإشارة الأولى فهي تختص بحدود الدولة التي وقعت المعاهدة، مع المسلمين حيث ورد أنها "من حد أرض أسوان إلى حد أرض علوة"(٤٦) وهذا يعني أن البجة في الشرق والنوبيين في علوة جنوباً خارج هذه المعاهدة، وأما الإشارة الثانية فهي تختص بعدم التزام المسلمين بالدفاع عن النوبيين ضد أعدائهم سواء البجة في الشرق أو نوبة علوة في أقصى الجنوب، دون مبرر واضح، لذا حرص المسلمون على إثبات هذا الشرط ضمن نصوص المعاهدة، حيث ورد أنه "ليس على مسلم دفع عدو عرض لكم ولا منعه عنكم من حد أرض علوة إلى أرض أسوان"(٤٧).

ويظهر بذلك أن المسلمين لم ينشغلوا بالبجة كثيراً ولم يهتموا بأمرهم، ولا سيما أنهم لم يشكلوا خطراً مباشراً يهدد الحدود الجنوبية لمصر، فضلاً عن أنهم لم يستجيبوا لدعوة البيزنطيين للقتال معهم ضد المسلمين، ولم يبادروا بالعداء خلافاً لما كان عليه الموقف النوبي.

نمو وتطوير مراكز تعدين الذهب في منطقة وادي العلاقي

ارتكزت الحياة الاقتصادية في بلاد البجة إثر استيطان العناصر العربية المختلفة فيها من القبائل المهاجرة،والجنود، والتجار، وغيرهم، منذ بدايات القرن الثالث الهجري على دعامتين أساسيتين هما العمل في المعادن والتجارة.

أما بالنسبة لمراكز التعدين ونموها وتطورها فقد فصل بعض المؤرخين والجغرافيين الحديث عن أماكن وجود الذهب والزمرد،وهما أهم معدنين كان يتم

استخراجهما في بلاد البجة بعامة، وفي وادي العلاقي بخاصة، ومن أولئك الجغرافيين اليعقوبي الذي ذكر أن عدد مراكز التعدين قد وصل إلى أكثر من خمسة وثلاثين مركزاً، منها (معدن يقال له خربة الملك، على ثماني رحلات من مدينة فقط، وفيه جبلان يقال لأحدهما العروض وللآخر الخصوم، فيهما معدن الزمرد، وفيه موضع يقال له كوم الصابوني، وكوم مهران، ومكابر، سفيد، وكل هذه المعادن يوجد بها الجوهر"(٤٨).

ويلاحظ الباحث أن أسماء مراكز التعدين السابقة كلها بجاوية لكن اليعقوبي يضيف إلى تلك المراكز مراكز أخرى تحمل أسماء عربية واضحة فيقول: "ومن المعدن الذي يقال له خربة الملك إلى جبل صاعد . وهو معدن تبر . مرحلة، وإلى الموضع الذي يقال له الكلبي، وموضع يقال له السكري، وموضع يقال له العلاقي الأدنى، وموضع يقال له الريفة . وهو ساحل بحر خربة الملك . وكل هذه معدن تبر، ومن الخربة إلى معدن يقال له رحم . معدن تبر . ثلاث مراحل"(٤٩).

هذا ويتفق المسعودي مع اليعقوبي في أن من أراد الذهاب إلى هذه المعادن من مصر فعليه أن يسلك طريقين، يبدأ أحدهما من فقط، في حين يبدأ الثاني من مدينة أسوان(٥٠)، لكن المسعودي ينفرد بتفصيل ذكر أنواع الزمرد المشهورة، فيقسمها إلى أربعة أنواع ويبين أن "جملة الوصف لهذه الأنواع الأربعة في الجودة والمبالغة في الثمن هو أكثرها ماء وأصفاها، وأكثرها خضرة، وأبعدها من السواد والصفرة، وغير ذلك من الألوان من تعري هذا النوع من النعوشة، فإذا سلم مما ذكرنا كان في نوعه في الغاية من الجودة والعناية في الوصف"(٥١)، كما أنه يبين الآفات التي تأتي على هذه المعادن فتقتلها فيقول "وآفات هذه الجواهر كثيرة، منها الريم، والحجارة ، والعروق البيض، التي تشوب هذا الجوهر وتوجد فيه"(٥٢)، بيد أنه يفيد بأن لهذه

المعادن . وبالذات الزمرد . فوائد أخرى لا يعرفها كثير من الناس، فيقول: "ولا تناكر بين ذوي الدراية بهذا الجوهر ومن عُني بمعرفته أن الحيات والأفاعي وسائر أنواع الحيات من الثعابين وغيرها إذا نظرت إلى الزمرد الخالص سالت أحداقها، وأن الملسوع إذا سقي من الزمرد الخالص على الفور أمن على نفسه من أن يسري السم في جوفه"(٥٣).

هذا وقد أشار المسعودي وغيره من المؤرخين إلى الوسائل والأساليب التي كانت تستخدم في البحث عن المعادن المختلفة خاصة الذهب والزمرد ، فيذكرون أن العمال كانوا يحفرون خنادق كبيرة في الأرض تسمى شيم، وقد يستغرق حفرها فترة طويلة، كما أنه يتطلب مجهودا كبيراً، وتتوقف درجة تلك الجهود وعدد العمال الذين يعملون في الحفر على نوع الأرض أو التربة التي يحفرون فيها ، فإن كانت تربتها تربة رملية كان الحفر ميسوراً، ويقل بذلك عدد العمال الذين يعملون في الحفر، أما إذا كانت التربة التي يعملون فيها تربة طينية أو صخرية فإنها تتطلب مجهوداً أكبر، وتستغرق فترة زمنية أطول(٥٤)، وفي أحايين أخرى يقوم العمال بالبحث عن المعادن في مغارات مظلمة يهتدون إليها بمصابيح، ويشدون أنفسهم بالحبال التي تبقى أطرافها خارج المغارة، وذلك ليستبينوا طريقهم أثناء العودة، ويصف المقريزي هذه الحركة النشيطة فيقول: "وكان العمال يدخلون إلى مغاير مظلمة بعيدة يهتدون إليها بمصابيح وبحبال يستدل بها على الرجوع خوف الضلال"(٥٥)، وقد كان الزمرد والذهب هما أكثر المعادن التي تستخرج في تلك المراكز، وبخاصة الزمرد الذي كان متوافراً بكميات كبيرة في منطقة العلاقي، مما حدا ببعض المؤرخين القول بأن معدن الزمرد لا يوجد في أي مكان آخر في العالم بخلاف العلاقي، حيث كثر طلابه في المنطقة وأضحوا بعد استخراجه من مناجمه يصدرونه إلى سائر البلدان الأخرى(٥٦)،

ومع ما في هذا الحديث من مبالغة واضحة إلا أنه يشير إشارة واضحة إلى المستوى الكبير، والتوسع الملاحظ الذي طرأ على العمل في مراكز التعدين في تلك المنطقة.

أما عن كيفية وجوده فتشير المصادر المختلفة إلى أن الزمرد يوجد على شكل عروق خضراء في طبقة من الحجر الأبيض الرخو، وفي أحيان أخرى يوجد مختلطاً بالتراب والطين(٥٧)، أما بالنسبة لمعدن الذهب فيذكر ابن الوردي أنه إذا "كان أول ليالي الشهر العربي خاض الطلاب في تلك الرمال، وينظرون التبر يضيء بين الرمل، ويعلمون مواضعه ويصبحون فيجئ كل منهم إلى كوم الرمل الذي عليه فيحمله على هجينه ويمضي إلى آبار فيغسله، ويوصله، ويستخرج منه التبر ويلغمه بالزئبق ثم يسكبه"(٥٨).

هذا ويمكن تحديد عدد من النقاط المهمة لتمثل أهم العوامل التي ساهمت في نمو وتطور مراكز التعدين، ومنها:

أولاً: توافر الأمن والاستقرار في المنطقة وقد جاء هذا الأمن نتيجة للجهود الكبيرة التي بُذلت لأجل رد البجة عن مهاجمة مراكز التعدين والمسلمين العاملين فيها، الذين استقرت أعداد كبيرة منهم في تلك المناطق منذ فترات طويلة مع عوائلهم وذراريهم، وقد كانت هذه المراكز عرضه لهجمات البجة المستمرة،حيث ادعوا "أن المعادن لهم في بلادهم، وأنهم لا يأذنون للمسلمين في دخولها"(٥٩)، هذا وقد نجحت تلك الحملات، ومن أهمها الحملة التي قادها محمد بن عبدالله القمي سنة ٢٤١هـ في رد البجة وإجلائهم عن مراكز التعدين(٦٠) كما نجحت الحملة في فرض النفوذ الإسلامي على تلك المراكز، وتوج ذلك بتولية مسؤوليات أرض المعدن لمحمد القمي نفسه(٦١)، حيث أمر الخليفة العباسي المتوكل وإليه على مصر عنبسة بن إسحاق الضبي كي يوفر له كل ما يلزم من المؤن والعتاد والرجال لتأكيد ذلك النفوذ(٦٢)

الذي تعزز بتوقيع اتفاقية مع ملك البجة يتصدرها شرط السماح للمسلمين بالعمل في المعدن دون التعرض لهم أو لممتلكاتهم بسوء، حيث وافق على بابا الملك البجاوي على هذا الشرط إبان زيارته لبغداد سنة ٢٤١هـ[٦٣]، هذا وقد أدت هذه الإجراءات والتدابير دوراً فاعلاً ومهماً في ازدياد ونمو مراكز التعدين بشكل ملاحظ.

ثانياً: ومن العوامل المهمة التي ساهمت في تطور هذه المراكز ازدياد الطلب على هذه المعادن، سواء أكان هذا الطلب من داخل العالم الإسلامي أو من خارجه، ذلك أن الدولة الإسلامية قد اتسعت رقعتها بشكل كبير، كما أضحت حاجتها للأموال اللازمة لتأمين الأمصار التي فتحت حديثاً كبيرة، هذا فضلاً عن حاجة الجنود والمقاتلين للمؤن والأغذية والسلاح اللازم لمواجهة كل ما يتهدد الدولة، ومن أمثلة ذلك الحملة التي أمر بتجهيزها الخليفة العباسي المتوكل، والتي وردت الإشارة إليها، حيث تم تجهيز سبعة مراكب محملة بالمؤن المختلفة وبالرجال وافقت محمد القمي في حملته على البجة بعد أن رست بساحل عيذاب، وكانت من أسباب انتصاره في تلك المعركة[٦٤].

كما أن هناك بعض المشروعات الأخرى كانت بحاجة إلى هذه المعادن مثل مشروعات سك النقود التي كانت تحمل أسماء وألقاب الخلفاء والولاة، وتدون عليها المناسبات والتواريخ المهمة[٦٥]، ومما يؤكد هذا الأمر ما ذكره أحد المؤرخين من أن أهم سبب لحملة محمد القمي كان انقطاع نصيب الدولة العباسية من المعادن المستخرجة في أرض البجة، حيث كان يصل نصيبها في عهد الخليفة المتوكل إلى خمس ما يتم استخراجه من الذهب والفضة والزمرد وغيرها من المعادن[٦٦].

أما من جهة الطلب الذي كان يأتي من خارج العالم الإسلامي، فقد ثبت أن عددا كبيرا من تجار الهند واليمن والمغرب والحبشة والحجاز ومصر[٦٧]، وغيرهم

كانوا يردون من خارج بلاد البجة للاتجار في هذه المعادن، حيث كانت حاجة الملوك والحكام في ذلك الوقت كثيرة لها حيث كانت تستخدم في تزيين القصور والبيوت الكبيرة، كما كان يستخدم بعضها الآخر في صناعة الحلي الخاص بالنساء إلى غيره من الاستخدامات الأخرى، ومما يدل على اتساع نطاق استخدام هذه المعادن وزيادة طلبها تسمية بعضها بأسماء الدول والبلدان التي كان ملوكها وأثرياؤها يتنافسون ويحرصون على شرائه واستيراده من بلاد البجة(٦٨).

ثالثاً: ومن هذه العوامل أيضاً الجهود التي بذلتها العناصر العربية المختلفة التي استقرت في بلاد البجة بعامة وفي مناطق التعدين بوادي العلاقي بخاصة، حيث استفادت هذه العناصر من الأوضاع الأمنية المستقرة التي سبقت الإشارة إليها، فكان أن اتجهت أعداد كبيرة منهم للعمل وللبحث عن المعادن المتبقية في المراكز القديمة، في حين اتجهت أعداد أخرى منهم لإيجاد مناجم جديدة مستفيدة في ذلك من عدم اهتمام البجة وعدم حماسهم للعمل في هذا المجال واستخراج المعادن المختلفة التي كانت تزخر بها بلادهم(٦٩)، وقد برعت هذه القبائل لدرجة أن بعض المناجم المهمة سميت بأسماء القبائل العربية التي وضعت يدها عليها، أو سكنت بجوارها مثل كلب، وعجل، وكاهل، وبعض بطون جهينة، وبني سليم، ومجموعات أخرى من مضر(٧٠).

ونجد أن هذه المجموعات، وبخاصة قبيلة ربيعة العربية قد اتجهت لمصاهرة البجة الذين يقطنون في مناطق التعدين، فتزوجوا من بنات رؤسائهم وهم الحدارب، مما عزز الاستقرار في المنطقة(٧١)، يقول المقريزي "وكانت البجة تشن الغارات على القرى الشرقية في كل وقت حتى خّربوها، فقامت ربيعة في منعهم من ذلك حتى كفوهم، ثم تزوجوا منهم، واستولوا على معادن الذهب بالعلاقي، وكثرت أموالهم

واتسعت أحوالهم، وصارت لهم مرافق ببلاد البجة"[٧٢]. ولم تقف ربيعة وغيرها عند ذلك بل اتجهت لزيادة مراكز التعدين حتى بلغت أكثر من اثنين وثلاثين مركزا[٧٣]، كما اتجهت لتطوير أساليب التنقيب وتحديث وسائله، وأصبحت معاملتهم أكثر دقة وتنظيماً، حيث تم وضع أسس للتعامل مع العمال المستخدمين في استخراجه الذي كان معظمهم من البجة، في حين كان بعضهم الآخر من الحبش والنوبيين وغيرهم من السودان، ومن تلك الأسس أن يمنح العامل أجراً ثابتا يتفق عليه بين الطرفين نظير عمله، ومنها كذلك أن يتم الاتفاق مع هؤلاء العمال على منحهم قدرا معلوما مما يتم استخراجه من المعادن المختلفة، يقول ياقوت الحموي في معرض حديثه عن العلاقي: "به معدن التبر بينه وبين أسوان في أرض فياحة يحتفر الإنسان فيها، فإن وجد فيها شيئاً فجزء للمحتفر، وجزء منه لسلطان العلاقي، وهو رجل من ربيعة"[٧٤]، ومع مرور الزمن نظمت العناصر العربية العاملة في المعدن عملية استخراجه، فأصبح العمال البجاويون وغيرهم يتقاضون أجورا محددة نظير عملهم، كما أصبحوا يحصلون على النفقة اللازمة لعيشهم من أمير العلاقي، وعمل لهذه الغاية ديوان خاص يقوم بالإشراف على شؤون العمال ودفع أجورهم وأرزاقهم[٧٥]، ويفصل أحد المؤرخين في بيان ذلك فيقول: "معدن الزمرد في البر المتصل بأسوان، وكان له ديوان فيه شهود وكتاب، وينفق على العمال به، وتنال لهم المؤن واستخراج الزمرد منه، وهم في جبال مرملة يحفرون فيه"[٧٦]، هذا وقد استطاعت العناصر العربية العاملة في المعدن من تطوير معرفتها في كيفية استخراجه من الأرض، كما يبدو أنهم قد استفادوا كثيرا من خبراتهم لدرجة أنهم أصبحوا يربطون كثرته بتقلبات الطقس، والرياح، وقوة الضوء، قال المسعودي . وهو ينقل عن جماعة من أهل الخبرة والدراية بهذه المعادن . :" ووجدت جماعة بصعيد مصر من ذوي الدراية مما اتصلت

معرفتهم بهذا المعدن، وعرف هذا النوع من الجوهر الذي هو الزمرد، يخبر أن الزمرد يقل ويكثر في فصول السنة في قوة مواد الهواء وهبوب نوع من الرياح الأربعة، وتقوى الخضرة فيه، والشعاع النووي في أوائل الشهر والزيادة في نور القمر، وكذلك وجدت في أخبار من عني بمعرفة أكثر المعادن من الجوهرية وغيرها أن الكبريت الأبيض والأصفر وغيره من أنواع الكبريت يكثر في معدنه في السنة التي يكثر برقها وتشتد صواعقها"[٧٧]، وعلى الرغم من هذه العوامل الجغرافية التي ذكر المسعودي أنه نقلها عن أهل الدراية بالمعدن . لا صلة لها بكثرته أو قلته كما زعموا له بيد أنها تدل دلالة واضحة على مدى اهتمام العناصر الموجودة في وادي العلاقي بهذه المعادن لدرجة أنها حاولت أن تربط وجوده وقلته ببعض المظاهر الجغرافية المهمة.

تنشيط حركة الموانئ البجاوية

أدى استغلال المعادن في منطقة وادي العلاقي لإنعاش حركة التجارة في بلاد البجة، كما أنه أدى إلى تطوير الموانئ البجاوية، وتطوير وتنوع معاملاتها التجارية مع موانئ البلدان المطلة على البحر الأحمر، وأضحى البحر الأحمر تبعاً لهذا النشاط الذي طال تلك الموانئ بحيرة إسلامية بحق، ومن أشهر تلك الموانئ ميناءا عيذاب وسواكن البجاويان.

ميناء عيذاب

موقع عيذاب: أورد المؤرخون والجغرافيون المسلمون بعض المعلومات المهمة التي من الممكن أن تساهم في تحديد موقع عيذاب من بين المدن المشهورة في المنطقة الساحلية في ذلك الوقت، فقد ذكر الإصطخري أنها على بعد عشر مراحل من أسوان[٧٨]، بينما يرى ناصر خسرو أن بينهما مسافة مائتي فرسخ[٧٩]، وقطع

هذه المسافة في خمسة عشر يوماً [٨٠]، بينما قطعها ابن جبير من قوص في تسعة عشر يوماً[٨١]، أما القاسم التجيبي فقد قطعها في اثنين وثلاثين يوماً. من قوص أيضا[٨٢] على أن المقريزي يحدد هذه المسافة بسبعة عشر يوماً[٨٣].

وسبب هذا الاختلاف بين هؤلاء الجغرافيين والمؤرخين ربما كان بسبب اختلاف الطرق السالكة إلى عيذاب، أو ربما بسبب تأخر بعضهم في الطريق لأيام عديدة للبحث عن الماء[٨٤]، أو عن الطريق[٨٥]، أو لأي سبب آخر.

هذا وقد انسحب هذا الخلاف كذلك على عدد من الباحثين المحدثين الذين حاولوا تحديد موقع عيذاب من خلال نتائج الدراسات والبحوث الأثرية التي تمت في المنطقة الساحلية[٨٦]، وبالرغم من النتائج الطيبة التي حققتها تلك الدراسات والأبحاث، حيث عثر بعضهم على أكوام أثرية تقع على خط عرض ٢٢° ، إلا أنه لم يستطع أحد حتى الآن الجزم بأن تلك الأكوام الأثرية هي بقايا مدينة عيذاب.

أهمية عيذاب:

زاد من أهمية هذا الميناء عدة عوامل يمكن إجمالها في النقاط التالية:

١- ميناء عيذاب كان أقرب نقطة عبور في الساحل الغربي للبحر الأحمر على ميناء جدة أكبر مرافئ الحجاز.

٢- تدهور الوضع في ميناء باضع التي تحولت عنها الحركة التجارية، فورثتها عيذاب[٨٧].

٣- ازدياد أهمية الميناء بعد أن استخدمها كل من عبدالله بن الحبحاب[٨٨]، ومحمد بن عبدالله القمي[٨٩]، في محاربة قبائل البجة بعد أن كثرت غاراتهم على مدن صعيد مصر الجنوبية، ومنعوا المسلمين العاملين في مجال التعدين بوادي العلاقي من العمل في استخراج المعادن المختلفة[٩٠].

٤- التوسع في استخدام الميناء لنقل الحجاج إلى الحجاز بعد توقيع اتفاقية الصلح بين محمد القمي والملك البجاوي كنون بن عبدالعزيز[٩١].

٥- استخدام الميناء لنقل المعادن إلى بلاد الحجاز واليمن والهند، بالإضافة للصادرات الأخرى[٩٢]، خصوصاً بعد أن قدم إلى بلاد البجة عبدالله بن عبدالحميد العمري فزاد من نشاط العمل في إنتاج المعدن ووسع من تجارته[٩٣].

٦- أن السفن الميممة شطر مصر توفر من الوقت، وتتقي العديد من الأخطار إذا رست بعيذاب، خصوصاً الأخطار التي تتمثل في العوامل الطبيعية مثل الشعب المرجانية، والرياح وغيرها.

ولعل أول استخدام لمرفأ عيذاب يعود إلى عصر البطالسة، إلا أن الخمول قد لازمه لفترة طويلة، ثم عاد إليها نشاطها مع توسع حركة الفتوح الإسلامية ، التي صاحبها نشاط تجاري مميز ظهر في توسع حركة الملاحة في سواحل البحر الأحمر الشرقية والغربية، إلا أن هذا النشاط ما لبث أن أخذ في الضعف بعد سقوط الدولة الأموية، وقيام الخلافة العباسية ببلاد العراق، ثم بدأ هذا النشاط ينتقل تدريجيا إلى الخليج العربي، وبخاصة بعد أن أمر الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور بردم خليج أمير المؤمنين، وحلت من ثم الموانئ المطلة على الخليج العربي محل الموانئ المطلة على البحر الأحمر في استقبال سفن الهند والصين وما إليها[٩٤].

ونتيجة لذلك التحول أصبح دور عيذاب ثانويا، حيث قلت أعداد السفن التجارية الرأسية بها أو المارة عبرها، ما عدا بعض السفن الصغيرة ذات الحمولة القليلة[٩٥].

إلا أنها سرعان ما استعادت نشاطها بعد أن استأنفت حركة الملاحة في البحر الأحمر نشاطها، وذلك بسبب تأثير ثورة الزنج والقرامطة على حركة الملاحة في الخليج العربي، وذلك في أواخر القرن الثالث الهجري، بالإضافة إلى ذلك فإن أعداداً كبيرة من التجار العرب بدؤوا يحجمون عن الوصول برحلاتهم إلى موانئ الهند عن طريق الخليج، الأمر الذي أدى إلى كساد تجارة البن والبهار والعطور[٩٦]، ومما زاد في أهمية عيذاب الخراب الذي تعرضت له الدلتا في مصر، وتحول قوافل الحجاج المصريين والمغاربة وما إليها من طريق شبه سيناء إلى طريق النيل حتى قوص أو أسوان ومنها عبر الصحراء الشرقية إلى عيذاب[٩٧].

هذا وقد كان لوجود معادن الذهب والزمرد في بلاد البجة بعامة وفي منطقة وادي العلاقي بخاصة أكبر الأثر في ازدياد أهمية عيذاب التي أصبحت ميناءً رئيسياً لهذه المعادن لدرجة أنها كانت تعرف بميناء الذهب.

على أن هذه الأهمية قد ازدادت بشكل كبير حينما بدأت تصلها سفن اليمن والهند محملة بمختلف البضائع والسلع، حتى وصفها أحد المؤرخين بأنها "أحفل مراسي الدنيا بسبب أن مراكب الهند واليمن تحط فيها وتقلع منها زائداً مراكب الحجاج الصادرة والواردة"[٩٨]. فأصبحت التجارة من أهم الدعامات التي ارتكزت عليها الحياة في مدينة عيذاب، التي أضحت أسواقها تمتلئ بمنتجات الهند ، وجزر الهند الشرقية من بهار وعطور وبخور، وبمنتجات مصر من الأقمشة والكتان والخزف[٩٩]، بالإضافة لصادرات بلاد البجة من غير الذهب والزمرد، مثل الجمال البختية، والأغنام والسمن التي كانت تصدر منها إلى ميناء جدة، وتحمل منها عبر القوافل إلى مكة المكرمة[١٠٠]، كما كانت تصل إلى الأسواق أيضا منتجات الحبشة واليمن[١٠١]، ومنتجات النوبيين في مملكتي المقرة وعلوة، حيث كانت هذه الممالك

تصدر العاج عن طريق عيذاب،التي ترتبط بها عبر طرق القوافل الواصلة من هذه الممالك عبر وادي العلاقي[١٠٢]، وأدت هذه الحركة الواسعة في هذا التنوع والاختلاف في السلع والبضائع الواردة إلى اهتمام ولاة المسلمين بها، حيث رصدت عدد من السفن الحربية لحماية حركة الملاحة فيها[١٠٣]، بالإضافة إلى ذلك فقد اتجه الولاة لدعم وحماية التجار من البجاويين ومن الأعراب الذين كانوا يهددون حركتهم، ويعملون على ابتزازهم، وأخذ أموالهم منهم بدون وجه حق[١٠٤]، فكان أن شجعت هذه التدابير التجار المقيمين في عيذاب فأخذوا ينظمون أنفسهم وأعمالهم بشكل جيد، حيث أقاموا مباني خاصة بهم في المدينة، كما أقام بعضهم دوراً لإقامة الوكلاء أو المندوبين الذين أضحوا يقيمون في المدينة بصفة دائمة، وكانوا ينفقون خلال فترة إقامتهم هذه أموالا طائلة على تشييد المنشآت الخيرية والدينية، ويبنون المساجد وغيرها[١٠٥]، ولم تقف مساهمات التجار عند ذلك الحد بل كانت لهم مشاركات معتبرة في إثراء الحياة، وفي دعوة البجة للإسلام وتأليف قلوبهم، كما شاركوا في حلقات الفقه التي كانت تقام هناك من قبل الحجاج والرحالة وغيرهم، والتي غالباً ما تتناول مسائل تتعلق بالحج والعمرة وأداء المناسك، وتركز على جواز إحرام الحاج من عيذاب أو عدم جواز ذلك[١٠٦].

هذا وقد كانت المكوس تفرض على السفن الوافدة إلى عيذاب من مختلف البلدان مما ساهم على حد كبير في إنعاش المدينة، وفي دعم المشاريع التي كان تنفق عليها، مثل تعبيد الطرق الواردة من قوص وأسوان وحفر الآبار وحمايتها من غارات الأحباش، وغيرهم من قطاع الطرق[١٠٧].

وفي ذلك يقول أحد المؤرخين المسلمين: "فيها تحصل المكس على ما في السفن الوافدة من الحبشة وزنجبار واليمن، ومنها تنقل البضائع على

الإبل إلى أسوان، ومن هناك تنقل بالسفن إلى مصر في النيل"[١٠٨]، وقد كانت هذه المكس تفرض على السلع الصادرة مثل التمر والقطن، والسكر واللؤلؤ، والذهب كما تفرض على السلع الواردة مثل الأخشاب والعود والبهارات والتوابل وغير ذلك من سلع اليمن والهند والحبشة، الأمر الذي أضفى على هذا الثغر مزيداً من الأهمية الاقتصادية لم يسبق لها مثيل، فأصبح بذلك أهم ميناء على الساحل الغربي للبحر الأحمر بالنسبة للتجارة والحج على حد سواء[١٠٩]، وبالإضافة لتلك المكس التي كانت تحصل من السفن الواردة والصادرة كانت هناك ضريبة يفرضها سكان المناطق الواقعة في طرق القوافل على كل حمل يمر بديارهم[١١٠]، حيث كانت القوافل العيذابية التي تحمل التجارة عبر الصحراء وتمر بتلك الطرق لا تنقطع أبداً، وقد كان لتجار عيذاب وكلاء تجاريون بأسوان وقوص، هم الذين يقومون بدفع هذه الضرائب عنهم كما كانوا يقومون بتسهيل عملية التبادل التجاري بين هذه المدن وبين عيذاب[١١١].

على أن تلك المكوس والرسوم التي كانت تفرض على التجار لم تكن هي وحدها المشكلة التي تواجههم في هذا الثغر، بل كانت هناك مشاكل أخرى لا تقل عنها، وهي اعتماد سكان مدينة عيذاب بشكل رئيسي في مأكلهم وملبسهم على ما يجود به التجار عليهم، نسبة لوقوع عيذاب في صحراء قاحلة يصعب فيها زراعة أي نوع من المحاصيل الغذائية، أما المشكلة الأخرى فتتمثل في ندرة المياه الصالحة للشرب بداخل المدينة، حيث كان السكان يعتمدون على مياه الأمطار على قلتها، أو على مياه الآبار المجلوبة من خارج المدينة،بواسطة بعض البجاويين الذين امتهنوا العمل في جلب هذه المياه وبيعها للمقيمين في المدينة، وللمارين بها من التجار والحجاج وغيرهم بأثمانٍ مضاعفة[١١٢].

كما أن التجار والحجاج كانوا كثيرا ما يتعرضون لابتزاز بعض البجة الذين يؤجرون لهم المراكب والسفن بأسعار مضاعفة، كما كانوا يملؤون هذه السفن بالمسافرين لدرجة تصعب معها الحركة في داخلها، ويظل الحجاج على هذا الوضع حتى تصل السفينة إلى وجهتها(١١٣).

سواكن

ومن الموانئ البجاوية التي ازدهرت نتيجة تطور مراكز التعدين، وتوسع حركة التجارة ميناء سواكن البجاوي الذي عرفه المؤرخون المسلمون ، وأفاضوا في وصفه فقال المسعودي: "سواكن أقل من ميل في ميل وبينها وبين البحر الحبشي بحر قصير يخاض، وأهلها طائفة من البجة تسمى الخاسة، وهم مسلمون، ولهم بها ملك"(١١٤). أما ياقوت الحموي فقد ذكر أنها "بلد مشهور على ساحل بحر الجار قرب عيذاب ترفأ إليها سفن الذين يقدمون من جدة"(١١٥)، أما ابن بطوطة فقال عنها: "وهي على ستة أميال من البحر ولا ماء بها ولا زرع ولا شجر، والماء يجلب إليها في القوارب، وفيها صهاريج يجتمع بها ماء المطر، وهي جزيرة كبيرة بها لحوم النعام والغزلان وحمر الوحوش، والمعزى عندهم كثير، والألبان والسمن، ومنها يجلب إلى مكة المكرمة، وحبوبهم الجرجور وهو نوع من الذرة كبيرة الحب يجلب منها أيضا إلى مكة المكرمة(١١٦)، وقال القلقشندي: "أخبرني من رآها أنها جزيرة على طرف بحر القلزم من جهته الغربية قريبة من البحر يسكنها التجار"(١١٧)، وقد أضحت لهذه المدينة . بفضل حركة التنقيب الواسعة في مناطق تعدين الذهب في وادي العلاقي وفي غيره . مكانة تجارية مهمة ولا سيما أن عددا كبيرا من مناجم الذهب والزمرد كانت ترتبط بها عبر طرق كثيرة، كما كان بعضها الآخر يقع قريباً من المدينة(١١٨)،

هذا ومما زاد نشاط الحركة فيها وأدى إلى ازدهارها قدوم عدد كبير من الحجاج وغيرهم عبر الموانئ البجاوية[١١٩].

ومما زاد في أهمية المدينة أن عددا كبيراً من التجار ابتنى بها بيوتا خصصوها لراحتهم[١٢٠]، ولإدارة أعمالهم التجارية فربما التقوا فيها ببعض التجار القادمين إليها من الهند والحبشة واليمن فضلا عن التجار القادمين من جدة ومكة والفسطاط وغيرهم، حيث كانت المدينة تعج بمختلف الأجناس وبمختلف البضائع[١٢١]، وكانت تتم فيها المبادلات التجارية وتوقيع العقود التجارية وغيرها من الأنشطة الاقتصادية الأخرى، بالإضافة لذلك فقد كان بالمدنية عدد كبير من المتاجر تباع فيها مختلف السلع مثل البهار، والقرنفل والزمرد، والذهب، واللؤلؤ الجيد والمواشي التي كان يصدر بعضها إلى مكة المكرمة[١٢٢]، وقد عبر عن تلك الحركة التي كانت تشهدها المدينة أحد المؤرخين حين قال: هي "مدينة عامرة في ساحل بلاد البجة وفيها متاجر ويخرج منها رقيق البجاة واللؤلؤ الجيد"[١٢٣].

وقد ازدهرت المدينة بسبب استتباب الأمن فيها، واهتمام المسلمين بها ولاسيما والي قوص الذي عمل على حماية التجارة والتجار من البجة وبعض الأعراب الساكنين من حولها، والذين كثيراً ما كانوا يستولون على أموال التجار المقيمين فيها، والذين يتوفون بها، ولا يعرف أحد كيف تصرف أموالهم فيستولي عليها هؤلاء[١٢٤].

على أن ميناء سواكن ظلت جنبا إلى جنب مع ميناء عيذاب تمثل أهم المنافذ والموانئ الواقعة على ساحل البحر الأحمر الغربي، وأصبحت مراسيها تمتلئ بمختلف السفن الشراعية والمراكب المخصصة لنقل الحجاج وغيرهم من المسافرين[١٢٥].

أثر النشاط الاقتصادي على أهل البلاد

أدت التطورات الاقتصادية التي شهدتها بلاد البجة، إثر التوسع الذي حدث في استخراج وتجارة المعدن، ونمو ازدهار طرق القوافل التجارية، إلى إحداث كثير من المتغيرات في حياتهم الاقتصادية، كان من أهمها تحول واستقرار كثير من قبائلهم في المناطق الساحلية حيث الموانئ البجاوية المعروفة، بعد أن كان أكثرهم يعيش في الأودية والبوادي وفي وسط شعاب الجبال(١٢٦)، معتمدين في غذائهم على الإبل بشكل كبير(١٢٧)، كذلك اتجهت أعداد منهم للعمل والاستقرار في مناطق التعدين المختلفة الواقعة في المنطقة بين نهر النيل غرباً حتى قرب سواحل البحر الأحمر شرقاً، وكانوا من قبل ذلك لا يتحركون إلا في حدود ضيقة(١٢٨).

هذا وقد أدت تلك التطورات إلى أن غير بعضهم مهنهم بسبب ما توافر لهم من فرص جديدة للكسب، يمكن توزيعها في المحاور التالية:

يتمثل المحور الأول في حركة القوافل التجارية حيث ارتبطت قبائل البجة ببعض المهن المتصلة بهذه القوافل، وهي:

١- العمل في تأجير الجمال.

٢- العمل في حراسة القوافل المختلفة.

٣- بيع وتوفير المياه الصالحة للشرب للمسافرين في هذه القوافل.

أما بالنسبة للمهنة الأولى وهي تأجير الجمال، فقد كانت الجمال هي أفضل وسائل السفر في تلك المناطق الصحراوية الجافة، ولاسيما أن المسافة من مدن جنوب مصر حيث تنطلق القوافل حتى الموانئ البجاوية في الساحل لتبلغ أكثر من خمسة عشر يوما(١٢٩). كما أن عدد آبار المياه الصالحة للشرب والواقعة في هذا الطريق قليلة جداً، مما يعني أن أفضل وسيلة للسفر هي الجمال، لذا كان

المسافرون يفضلونها دائماً على غيرها من الدواب الأخرى التي كانت تستخدم استخداماً محدوداً مثال البغال والحمير، وكان البجة يتخيرون لهذا الغرض أفضل أنواع الجمال لتأجيرها للقوافل، وهي الجمال المعروفة بالجمال البختية، والمعروفة بصبرها وتحملها للعطش وقدرتها على السير لمسافات طويلة دون الحاجة إلى الماء، كما أنها كانت تعتبر مخزوناً متحركاً للمياه ينحره المسافرون إذا دعت الحاجة لذلك فيصيبون منها رياً وشبعاً [١٣٠]، هذا وقد أصبح البجة الذين يعملون في تأجير هذه الجمال في وضع مادي جيد، خصوصاً أن بعضهم كان يستفيد كثيراً من الهدايا المختلفة التي يقدمها لهم المسافرون من التجار والحجاج وغيرهم، والتي كانت في غالبها تتكون من الأطعمة والملابس والأحذية وغيرها، فكان البجة يبيعون بعضها ويلبسون بعضها الآخر لدرجة أنهم أصبحوا يشبهون التجار والحجاج العرب المسافرين في صحبتهم[١٣١] من حيث اللباس والهيئة.

أما ثاني المهن التي عمل فيها البجة مع هذه القوافل فتتمثل في جلب مياه الشرب وبيعها، ولاسيما أن حاجة القوافل إلى مياه الشرب في هذه الطرق حاجة ماسة، بسبب أن القافلة تسير أحياناً ثلاثة أو أربعة أيام في الطريق دون أن تجد بئراً أو ماءً صالحاً للشرب، فكان البجة يستغلون تلك الحاجة، ويجلبون المياه من المناطق الواقعة حول الطريق، فيعرضونها على القوافل بأسعار مرتفعة، فيشتريها هؤلاء نظراً للحاجة المشار إليها[١٣٢]، فكانوا يحققون بذلك أرباحاً كثيرة من هذه المهنة.

هذا وقد ارتبطت المهنة التي تليها إلى حد كبير بالمهنتين السابقتين، وهي مهنة حراسة القوافل، حيث كان هناك عدد من المخاطر تقابل المسافرين في هذا الطريق، وكان من أهمها تعرض القوافل لقطاع الطرق من القبائل البجاوية، ومن

بعض القبائل العربية الساكنة في المنطقة، الأمر الذي يضطر المسافرين والقوافل للتعاقد مع بعض البجاويين لحراسة قوافلهم حتى تقطع هذه المسافة، وتصل إلى الموانئ البجاوية في الشرق نظير أجر معلوم يتم الاتفاق عليه بين الطرفين قبل أن تتحرك القافلة(١٣٣).

هذا وقد استفاد البجة كثيراً من هذه الفرص التي اتيحت لهم للعمل والكسب من خلال حركة القوافل سواءً بتأجير الجمال أوبيع المياه أو بالعمل في حراسة القوافل، كما أنهم قد ساهموا بدورهم في تأمين الطريق، وحفظه، كما قاموا بخدمته وخدمة المسافرين من تجار وحجاج وغيرهم، حتى إن بعض المؤرخين وصفهم بأنهم: "أهل أنس وحسن وتلطف مع التجار"(١٣٤)، وقد كان هذا هو الطابع العام والسمة الغالبة لهؤلاء البجة، إلا أن بعضهم قد يشذ عن ذلك فيقوم بسبب الطمع والجشع والرغبة في الثراء بتغيير خط سير القوافل فيسلك بها طرقا غير الطرق المعروفة لأجل أن يتوه المسافرون في الصحراء ويهلكوا عطشاً ثم يقوم بالاستيلاء على ما معهم من تجارة وأموال، مثلما حدث لوفد الحاج القوصي الذي قدم من مدينة قوص بجنوب مصر فضللهم بعض البجة حتى هلكوا عن آخرهم، ثم استولوا على ما معهم من متاع(١٣٥)، ويفصل أحد المؤرخين في هذا السلوك فيقول: "ويسلكون بهم . أي بالمسافرين . غير طريق الماء فربما ذهب أكثرهم عطشاً، وحصلوا على ما يتخلفه من نفقة أوسواها"(١٣٦)، ولعل هذا السلوك السيئ الصادر من بعض البجة مع المسافرين هو الذي دعا ابن جبير إلى وصفهم: "بأنهم أمه لا أخلاق لهم ولا جناح على لاعنهم"(١٣٧)، إلا أن غالبيتهم كانوا يحسنون التعامل مع المسافرين، كما كانوا على قدر كبير من الأمانة والخلق، الأمر الذي جعلهم محل ثقة المسافرين فأسندوا إليهم مهمة قيادة هذه القوافل.

أما المحور الثاني الذي ارتكز حوله نشاط البجة وعملهم فيتمثل في العمل في مجال التعدين، والبحث عن المعادن، والواقع أن البجة كانوا قبل الوجود الإسلامي الكثيف الذي ظهر في المنطقة . نتيجة استقرار واستثمار بعض القبائل العربية واحترافها العمل في المناجم . لا يهتمون كثيرا بالمعادن والعمل في مناجمها تجارة أو استخراجاً[١٣٨]، إلا أنهم بعد أن لاحظوا توافد المسلمين وتطويرهم لهذه المهنة احتجوا على ذلك الوجود، وتلك الهيمنة، وعبروا عن ذلك الاحتجاج بمهاجمة العناصر العربية الموجودة في وادي العلاقي وفي غيرها من المراكز، وذكروا أن المناجم في بلادهم، وأنهم لا يسمحون لأحد بالعمل فيها.

إلا أنه بعد توقيع الاتفاقيات التي وردت الإشارة إليها مسبقا، وبعد المصاهرة التي تمت بين بعض قبائلهم وبين القبائل العربية المستقرة هناك [١٣٩].خفت حدتهم كثيراً، وأضحوا يعملون جنباً إلى جنب مع القبائل العربية والتجار وغيرهم في البحث عن المعادن استثماراً وتجارةً، هذا بالنسبة للمقتدرين منهم، أما عامة البجة فكانوا يعملون أجراء عند المسلمين من أصحاب مراكز التعدين، حيث يكون ذلك إما شراكة مع التجار، وإما العمل نظير أجر معلوم يتم الاتفاق عليه مسبقاً[١٤٠]، ويبدو أن بعض البجة الذين كانوا يعملون في تلك المعادن كثيراً ما كانوا يطمعون في الربح والثراء السريع فأخذ بعضهم يتحين الفرص لاختلاس بعض المعادن والجواهر أثناء عمله في المناجم، حتى إذا انتهت ساعات العمل المتفق عليها خرج بما اختلسه ثم باعه في السوق للتجار ولغيرهم بأقل الأثمان، ويبدو أن هذه الممارسات قد تكررت كثيراً، الأمر الذي كان يضطر أصحاب العمل وأربابه لتفتيش العمال عند خروجهم من تلك المراكز تفتيشاً دقيقاً[١٤١].

على أن أحد الباحثين يناقش هذا الأمر ويدافع عن هذا السلوك مبرراً عن تعبير رفضهم للوجود العربي في مناطق التعدين، بسبب أن ذلك الرفض يعتبر واحداً من خصائص التنظيم الاجتماعي عند البجة الذين يعتبرون . على حد قوله .كل من قدم إلى أرضهم يعتبر ضيفاً عليهم، طالما تمسك بواجبات الضيافة، ولكن لا يسمح له بخرق هذه العلاقة أو تجاوز حدود الضيافة كأن يحفر بئراً مثلاً، أو يقطع شجرة، وإذا فعل ذلك لأي سبب كان عليه أن يدفع مقابلاً مساوياً لما فعل[١٤٢]، ومهما يكن في هذا الرأي من وجاهة ظاهرة، لكنه لا يصلح أن يكون قاعدة عامة يقاس عليها في هذا الجانب، لأن الواقع يؤكد خلاف ذلك، فالبجة قد دخلوا في علاقات واسعة مع العناصر العربية المختلفة، وانتهت في غالبها بالتصاهر، على النحو الذي تم بين قبيلة ربيعة العربية وبين الحدارية، حيث ارتضى هذا الفرع بهذه المصاهرة، بل سعدوا بها كثيراً بسبب المكاسب الكثيرة التي تحققت لهم من جرائها، وهي مكاسب متعددة ليس هذا مجال شرحها وبيان تفصيلاتها[١٤٣]، هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية ربما يكون الباحث قد رجح ذلك نتيجة لسلوك بعض القبائل العربية هناك، وهو سلوك غير حميد سببه التنافس في حيازة هذه المعادن، وقد تم بيان ذلك ومناقشته في الفصل الخاص بدراسة الوسائل السلمية وأثرها في نشر الإسلام.

ومهما يكن من أمر فإن الباحث يستطيع أن يقرر بشيء من الاطمئنان أن الفرص التي أتاحها الوجود العربي الإسلامي للقبائل البجاوية للعمل في مجال التعدين قد طورت كثيراً من قدراتهم، ووسعت مداركهم فيما يختص بالعمل في مجال التعدين، كما أنها قد أضفت عليهم بعض مظاهر الثراء والغني، خصوصاً الذين تمكنوا من الاستفادة من الاتفاقيات الموقعة معهم، ومنحتهم حق التجارة والدخول في

مدن وأسواق مصر، فعملوا في تجارة المعدن وتسويقه، جنباً إلى جنب مع التجار المسلمين[١٤٤] فجنوا من ذلك فوائد عديدة.

أما ثالث المحاور التي ارتكزت عليها حياة البجة بعد التحولات التي سبق الإشارة إليها فهي الموانئ البجاوية، حيث استقرت أعداد كبيرة منهم في المناطق الساحلية بعامة، وفي ميناءي سواكن وعيذاب بخاصة، بعد أن تركوا السكن في الوديان والمرتفعات التي تقع بالقرب من تلك المدن[١٤٥]، وهذا الأمر يعتبر . في حد ذاته . تحولاً جديداً في حياتهم، حيث توافرت لهم فرص جديدة من العمل والكسب نتيجة لما بدأت تشهده تلك الموانئ من حركة تجارية نشيطة، يقول اليعقوبي : "وعيذاب ساحل البحر المالح، يركب الناس منه إلى مكة والحجاز واليمن، ويأتيه التجار فيحملون التبر والعاج وغير ذلك في المراكب"[١٤٦].

فكانت أهم الأعمال التي امتهنها البجة في هذه الموانئ، صناعة المراكب وتأجيرها. أما من حيث صناعتها فقد اتجه التجار المسلمون لاستيراد وتوفير أجود أنواع الأخشاب من بلاد الهند واليمن[١٤٧]، كما كانوا يقومون بصناعتها في مراحل متعددة يصفها أحد الرحالة بقوله: "والجلاب التي يصرفونها في هذا البحر ملفقة الإنشاء لا يستعمل فيها مسمار البتة، إنما هي مخيطة بأمراس من القنبار، وهو قشر جوز النارجيل يدرونها إلى أن يتخيط، ويفتلون منه أمراساً يخيطون بها المراكب ويخللونها بدُسر من عيدان النخل"[١٤٨]، ويبدو أن البجة قد استفادوا كثيراً من تجاربهم، فطوروا صناعة هذه المراكب، وأدخلوا فيها كثيراً من التحسينات والتعديلات من واقع تلك التجارب، فكانوا إذا فرغوا من إنشاء المركب الجديد" سقوها بسمن أو دهن الخروع أو دهن القرش، وهو حوت عظيم يبتلع الغرقى فيه"[١٤٩] وذلك حتى تلين أعوداها، وتكون أكثر مرونة وقدرة على مواجهة الأخطار المحتملة من الشعاب

والأمواج والرياح وغيرها[١٥٠]، وأصبح البجة بسبب كثرة الطلب على هذه المراكب من قبل التجار يجتهدون في تطويرها وإتقانها حيناً بعد حين، فأدخلوا ليف النخيل في صناعتها، حيث أصبحوا يفتلون مفاجيل لخياطة الألواح بعضها إلى بعض، بعد أن أدركوا أن هذا النوع من الحبال أصلح من غيره، وأكثر صموداً في الماء المالح، بينما إذا أصابه الماء الحلو أفسده [١٥١]، واتجهوا كذلك إلى نسج أشرعة هذه السفن من خوص شجر المقل الذي يجمع بين المرونة والليونة مع المتانة والقوة.

ومن أميز ما توصل إليه البجة أن صناعة المراكب على هذا النحو المُكلف أفضل بكثير من صناعة المركب المسماري الذي لا يصمد كثيراً أمام الصخور والشعب المرجانية، وفي ذلك يقول الإدريسي: "وهناك حيث ينصب الماء أحجار مكدسة وصخور قوية فإذا وصلت السفن هذا المكان لم يمكنها عبوره لما فيها من العطب المهلك"[١٥٢] والطريف في الأمر أنه بالرغم من اجتهاد البجة وتفانيهم في صناعة هذه المراكب وتطويرها إلا أنهم لم ينالوا ثقة المسافرين من تجار وغيرهم، فيوصي أحدهم قائلاً: "فلا ينبغي لأحد أن يركب في مركب من هذه المراكب مختاراً، لما يتقي من غررها وخطرها"[١٥٣]، على أن هذا السخط لم يكن بسبب ضعف بنية هذه المراكب فحسب، بل بسبب أن البجة كانوا "يبالغون في إشحان الجلبة بالناس حتى يبقى بعضهم فوق بعض حرصاً على الأجرة، ولا يبالون بما يصيب الناس في البحر، بل يقولون دائما علينا بالألواح وعلى الحجاج بالأرواح"[١٥٤]، ولعل هذا الجشع والطمع في الربح السريع هو ما دعا أحدهم للدعاء على أصحابها، كما أباح لعنهم ، وفي ذلك يقول: "وبالجملة فإنهم لا أخلاق لهم ولا جناح على لاعنهم"[١٥٥].

ومهما يكن من أمر فإن هؤلاء المسافرين كانوا مصدر رزق وثروة كبيرة لأصحاب المراكب من البجاويين ، الذين تحسنت أوضاعهم المادية والمعيشية

بسبب ما كانوا يجنون من ربح وفير فـ" من أهلها إلا ذوي اليسار إلا له الجلبة والجلبتان، فهي تعود عليهم برزق واسع فسبحان قاسم الأرزاق على اختلاف أسبابها لا إله سواه"(١٥٦)، هذا عن المقتدرين والميسورين من البجة الذين عملوا في صناعة وتأجير المراكب في المنطقة الساحلية ، أما عامة البجة والمعوزين منهم فقد اتجهوا لامتهان عدد من الحرف التي ارتبطت بالحركة التجارية، والنشاط الاقتصادي الذي توافر هناك ، ومنها جلب المياه الصالحة ، وبيعها للتجار وللحجاج وغيرهم ، فكان ذلك يدر عليهم أرباحاً كثيرة ، ولاسيما في الأوقات التي يقل فيها المطر وتنضب فيها مياه الآبار القليلة الموجودة داخل هذه المدن ، فكان المسافرون عموماً والتجار خصوصاً يدفعون أموالاً كثيرة لأجل الحصول على المياه ، وربما قايضوا البجة ببعض السلع الأخرى مثل المحصولات الغذائية والأكسية والأحذية وغيرها نظير جلب البجة المياه الصالحة للشرب لهم(١٥٧)، ومنها كذلك امتهان البجة لحرفة صيد السمك وبيعه للتجار ، ولاسيما أنهم نادراً ما يأكلونه، لأن طعامهم الأساسي يتكون في الغالب من الذرة والحليب ، كما يدل هذا على مدى قوة التأثير الإسلامي على البجاويين ، الذين كانوا في السابق . بحكم أنهم مجتمع رعوي . ينظرون إلى العمل في صيد السمك أو بيعة على أنه عمل يحط من قدرهم الاجتماعي والقبلي.

ويبدو أن البجة تأثروا في هذا الجانب كثيراً بالتجار المصريين والمغاربة الذين يفضلون السمك على كثير من الأطعمة الأخرى، حيث عرفت مجتمعاتهم هذا النوع من الطعام منذ القدم(١٥٨)، واحترف البجة كذلك مهنة استخراج اللؤلؤ من الجزر التي تقع بالقرب من الساحل البجاوي، فكانوا يركبون إلى تلك الجزر في شهور معلومة من السنة ، فإذا تقدمت تلك الشهور أقاموا أياماً عديدة هناك، حيث

يغوصون في أعماق البحر بسبب أن "المقاص منها قريب القعر ليس ببعيد، ويستخرجونه في أصداف لها أزواج كأنها نوع من الحيتان، أشبه شيء بالسلحفاة، فإذا شقت ظهرت الشقتان من داخلها كأنهما محارتا فضة، ثم يشقون عليها، فيجدون فيها الحبة من الجواهر ، قد غطى عليها لحم الصدف، فيجتمع لهم من ذلك بحسب الحظوظ والأرزاق ، فسبحان مقدرها لا إله سواه"[١٥٩]، فكان البجة بعد جمعهم هذا اللؤلؤ يعرضونه على التجار ، الذين كانوا يفدون إلى ميناءي عيذاب وسواكن، أو على التجار الذين كانوا يقيمون في المدينة بشكل دائم[١٦٠].

وقد كان إقبال التجار على شراء اللؤلؤ من البجاويين كبيراً، خصوصاً أن اللؤلؤ المستخرج من هذه المناطق قد ذاع صيته ، واشتهر في كثير من المدن والبلدان[١٦١]، وأصبح مرغوباً فيه.

هذا وقد اتجه بعض البجة نتيجة لما توافر لهم من ثروات للعمل في مجال التجارة خصوصاً أن الاتفاقيات التي سبق وأن وقعت مع ملوكهم قد منحتهم حق التنقل والدخول إلى مدن الصعيد المصري، شريطة ألا يشهروا سلاحاً خلال وجودهم داخل تلك المدن ، فاستفادوا من ذلك فوسعوا من علاقاتهم التجارية مع تجار مدينتي أسوان وقوص بخاصة، وأصبحت لهم علاقات واسعة ومصالح كثيرة مع تجار بقية المدن المصرية، فضلاً عن علاقاتهم مع التجار اليمنيين والأحباش وتجار الهند والحجاز[١٦٢].

وترتب على ذلك أن أصبح كثير من البجة في أوضاع اقتصادية حسنة، مكنت بعضهم من تطوير أنفسهم وحياتهم، حيث بنوا المنازل في المدن الرئيسية وترك معظمهم حياة البداوة، كما اكتسبوا خبرات وساعة بما توافر لهم من صلات جديدة مع تجار العالم الإسلامي.

هذا فضلاً عن توسع علاقاتهم الاقتصادية والتجارية مع كثير من الدول والبلدان والشعوب المعروفة آنذاك.

خاتمة البحث

ومن خلال الدراسة والتحليل يمكن للباحث أن يصل إلى عدد من النتائج المهمة المتعلقة بمسار العلاقة بين المسلمين وبين بلاد البجة ومن ذلك أن جملة الاتفاقات التي أمكن توقيعها بين الطرفين تقف دليلاً شامخاً على روح التعايش الإنساني والديني والثقافي الذي كان سائداً بين الطرفين وكان أبرز مظاهره حماية وحفظ البجاويين للمساجد التي أنشأها المسلمون بصيحة وهجر وغيرها من المدن البجاوية، كما يمكن القول بأن المرونة والسعة التي تميزت بها هذه المعاهدات قد جعلها تمثل إطاراً جامعاً مانعاً يحمي العلاقات بينهما ويصونها ، فضلاً عن ذلك فإنها كذلك قد عززت مبدأ عدم الاعتداء والتعدي وحفظ الأموال والأنفس والدماء، وأن الشروط والبنود المتعلقة بالمرور الحر للأفراد والبضائع كانت عاملاً مهماً في عملية التغيير الذي حدث في مستقبل العلاقة بين الطرفين بل وفي مستقبل المنطقة كلها.

ويمكن القول كذلك بأن التغيير الذي أحدثته الاتفاقيات في جملتها لم يكن ويتم بشكل فجائي عجل بإطاحة الكيانات البجاوية جملة واحدة، بل أنتظم في عملية تراكمية بطيئة أدت في النهاية إلى انتقال طوعي متدرج بالمنطقة كلها نحو الإسلام ، والواقع أن منهج الدعوة في بلاد البجة قد قام أصلاً على مبادئ السلام والتعايش والأمان والاعتراف بالآخر واحترامه واحترام خصوصيته فضلاً عن أنها وطدت العلاقة بين الطرفين في وقت مبكر فأمن التجار وأمنت القوافل، وانفتح الباب واسعاً

للهجرة وللحراك السكاني ودخل الجميع في علاقات تزاوج وتصاهر أدى لظهور أجيال المولدين فتوافرت بذلك علاقات اجتماعية واسعة، مكنت للثقافة الإسلامية وللغة العربية في بلاد البجة وازدهرت حركة التجارة وحركة الملاحة في البحر الأحمر، وفي منطقة وادي النيل فنشأت المدن والمراكز والموانئ النيلية، وانتقلت أعداد من البجاويين إلى مصر للتجارة وللعلم واستوطن بعضهم هناك وشارك مشاركات كبيرة في حركة السياسة والاجتماع والعلم والمعرفة وأصبح وأدى ذلك إلى بروز عدد غير قليل من العلماء البجاويين الذين أصبحوا منارات شامخة في الأدب والفقه، وقدموا بذلك مساهمات مقدرة وكسبا وحضوراً معتبراً في بناء وتثبيت معالم الحضارة الإسلامية سجلتها لهم مصادر التاريخ بأحرف من نور.

ومهما يكن من أمر فإنه يمكن القول بأن انتشار الإسلام وامتداد دعوته إلى بلاد البجة لا يختلف في مظاهرة ووسائله عما جرى عليه الحال في كثير من البلدان، حيث تم هذا الامتداد نتيجة لجهود كبيرة ومتنوعة ، منها جهود رسمية، تمثلت في الحملات والسرايا ، وأخرى غير رسمية تمثلت في الوسائل السلمية، حيث أدى التجار والدعاة والحجاج وغيرهم أدواراً مقدرة في هذا الجانب، وقد تركت تلك الجهود مجتمعة آثاراً مختلفة على مستقبل البلاد الديني والسياسي والاقتصادي والاجتماعي، على النحو الذي وردت تفصيلاته في ثنايا البحث، وعطفاً على ذلك يمكن تحديد عدد من النقاط واعتبارها أهم النتائج التي خلصت وتوصلت إليها هذه الدراسة وهي على النحو التالي:

١- انتشار الإسلام في بلاد البجة كان أقوى بكثير مما هو متعارف عليه في أوساط الباحثين،ومما ادعاه بعض المستشرقين الذين ارتهنوا موضوع انتشاره في بلاد البجة بوجود الممالك البجاوية ورأوا أن الدعوة لم تنتشر في البلاد إلا بعد أن

زالت الأنظمة البجاوية الحاكمة، ولكن الواقع والنصوص التي تسندها الدراسة والتحليل، أثبتت، خلاف هذا الرأي، كما تؤكد أن تحول معظم البجاويين للإسلام قد حدث في ظل النظام البجاوي الحاكم، والدليل على ذلك كثرة وجود المساجد في المنطقة مع وجود هذه الأنظمة، وأداء أعداد كبيرة من البجاويين فريضة الحج فضلاً عن إخراجهم صدقاتهم وزكواتهم، مما يعني أن الدعوة الإسلامية ووسائلها المختلفة لم تنتظر سقوط هذه الممالك، بل تسربت في هدوء أدى في لانهاية إلى الإحاطة بهذه الأنظمة من عدة وجوه، ثم الإطاحة الكلية بها.

٢- وبدراسة الاتفاقيات الموقعة مع البجة يلاحظ الباحث مدى حرص ولاة المسلمين على حماية وحفظ المساجد، إدراكاً منهم لأهمتها وأثرها في نشر الدعوة الإسلامية، لذا كانوا يحرصون على تضمين الاتفاقيات التي وقعت مع البجاويين وغيرهم بنوداً تختص بحماية وحفظ هذه المساجد.

٣- عدم إطاحة المسلمين بالنظام السياسي البجاوي ترجع لعدة أسباب أهمها، أن المسؤولين في الدولة الإسلامية قد تركوا الفرصة للوسائل السلمية أن تؤدي وظيفتها لما يتوقع أن يترتب على ذلك من تغييرات حضارية وسياسية واجتماعية مهمة لمستقبل المنطقة أكثر مما تحدثه الحملات والتجريدات العسكرية، وهذا ما حدث بالضبط في بلاد البجة، حيث انتهى الأمر على النحو الذي توقعه المسؤولون في الدولة الإسلامية.

٤- الجهود الرسمية والسلمية. بما حققته من استقرار وأمن في المنطقة . قد ساهمت مساهمة فعالة في نمو وتطور أوضاع البجة الاقتصادية، ويظهر ذلك في

تطوير مراكز التعدين، وتنشيط حركة الموانئ وتوسيع حركة التجارة، وازدهار طرق القوافل، وتحسين أوضاع البجة المعيشية.

٥- أفرز التصاهر الذي تم بين القبائل العربية الوافدة وبين البجاويين جيلاً من المولدين هم البجة المستعربون، الذين كان لهم أثر مهم في نشر الإسلام، وفي تغيير مسار البلاد ووجهتها، وذلك بسبب ما يكفله لهم النظام الاجتماعي السائد في أوساط قبائل البجة من تولي مقاليد السلطة، ووراثة مقاليد الحكم في البلاد.

٦- انتشار الإسلام وتوطنة في بلاد البجة قد أحدث نقلة نوعية مهمة في حياة البجاويين لا سيما أن الحياة هناك ارتكزت على تنصرين أساسين هما العمل في مناجم المعدن، والتجارة بين الساحل ومنطقة حوض النيل.

٧- صلة الألفة والإخاء الذي سادات المنطقة آثارا بشكل واضح وبين في نمو وتطوير مراكز التعدين في منطقة وادي العلاقي وفي المدن والموانئ الساحلية.

٨- حركة التجارة في الموانئ البجاوية قد قفزت قفزات كبيرة من حيث حركة الصادر والوارد ومن حيث تنوع البضائع المنقولة نفسها.

٩- هذه الآثار جميعاً قد انعكست على حياة البجاويين الذين تحولت أعداد كبيرة منهم لامتهان مهنة التجارة أو الارتباط بها بدلاً من حياة التبطل، فأثر ذلك بشكل إيجابي على حياتهم.

المصادر والمراجع

مصطفى محمد مسعد: الإسلام والنوبة في العصور الوسطى، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٠م.

مكي شبيكة: السودان عبر القرون، دار الثقافة بيروت ١٩٦٤م.

يوسف فضل حسن: مقدمة في تاريخ الممالك الإسلامية في السودان الشرقي، الدار السودانية للكتب، الخرطوم ١٩٧٢م.

عوض خليفات: مملكة ربيعة العربية في وادي النيل، عمان، الأردن، ١٩٨٣م.

جعفر أحمد صديق: انتشار الإسلام في السودان في القرون الثلاثة الأولى من الهجرة: رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.

ابن خردازبة: المسالك والممالك، مكتبة المثنى ، بغداد (بدون تاريخ).

القزويني (زكريا بن محمد) : مستفاد الرحلة والاغتراب تحقيق عبدالحفيظ منصور، الدار العربية، ١٣٩٥هـ.

التجيبي (القاسم بن محمد) : آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت، ١٩٦٠م.

اليعقوبي (أحمد بن أبي يقعوب): تاريخ اليعقوبي، دار صادر، بيروت، ١٩٦٠.

ابن سيد الناس (محمد بن عبدالله بن يحيى): عيون الأثر في فنون المغازي والسير، بيروت، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.

ابن الوردي (عمر بن حفص) خريدة العجائب وفي يده القرائب، (٥٠ ورقة).

المقريزي (أحمد بن على): المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار،المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٣٧٠هـ.

ابن سليم الأسواني: أخبار النوبة والمقرة وعلوة والبجة والنيل، المطبعة الأميرية ، القاهرة، ١٣٧٠هـ .

ابن عبدالحكم (عبدالرحمن بن محمد) فتوح مصر، بغداد.

الطبري (محمد بن جرير): تاريخ الأمم والملوك، دار سويدان بيروت، ١٩٦٧م.

ابن حوقل (القاسم بن حوقل): صورة أراضي، ليذن، ١٩٣٨م.

ابن الأثير (على بن أحمد) الكامل في التاريخ دار الكتاب العربي، بيروت.

ابن بطوطة (الرحلة).

ياقوت الحموي (معجم البلدان).

محمد إبراهيم أبو سليم: دور العلماء في نشر الإسلام، الخرطوم.

ربيع محمد الحاج: معاهدة البقط وآثارها على بلاد النوبة، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، محرم ١٤١٢هـ .

عز الدين عمر موسى: الثقافة الإسلامية كسب سجله التاريخ وضيعه الأجيال، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض ١٤١٦هـ.

عبدالعزيز بن راشد العبيدي: وسائل انتشار الإسلام في إفريقيا، بحث بمجلة الدراسات الإفريقية، جامعة إفريقيا العالمية، الخرطوم، رجب ١٤١٠هـ.

Paula.ahistory of the bejat,ribes in the sudan cam bvidge 1954.

The arabs and the sudan khant oum 1973.

Arkell.A.j: histovyof the sud an from the earliest tiwe to 1821.lond on 1961.

للإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق.

ابن مماتي: قوانين الدواوين : تحقيق عزيز سوريال، القاهرة، ١٩٤٣م.

صلاح الدين الشامي: الموانئ السودانية، مصر، القاهرة.

أحمد دراج: عيذاب، نهضة إفريقيا، وزارة الثقافة، القاهرة. ١٩٤٨م.

بشير إبراهيم بشير: عيذاب.

رولاند أوليفر: موجز تاريخ إفريقيا.لببببب

(١) ابن خرداذبة (أبو القاسم عبيدالله بن عبدالله): المسالك والممالك، ص٩٢،مكتبة المثنى، بغداد، (بدون تاريخ).

(٢) القزويني (زكريا بن محمد): آثار البلاد وأخبار العباد، ص١٨،بيروت، ١٩٦٠م

(٣) التجيبي (القاسم بن محمد): مستفاد الرحلة والاغتراب، ص ٢٠٨، تحقيق عبدالحفيظ منصور، الدار العربية ١٣٩٥هـ.

(٤) المصدر السابق: ص ٢٠٩.

(٥) اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب بن واضح): تاريخ اليعقوبي، ج١،ص١٩٢،دار صادر، بيروت،١٩٦٠م.

(٦)سليم حسن: مصر القديمة، ص ١٠,٤٥، القاهرة، ١٩٥٠م.

(٧) محمد عوض محمد: السودان الشمالي، سكانه وقبائله، ص٣٨، مطبعة لجنة التأليف، القاهرة ١٩٥١م.

(٨) ابن سيد الناس (محمد بن عبدالله بن يحيى): عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، ج١، ص.مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

(٩)القزويني: آثار البلاد، ص١٨، اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج١،ص١٩٢.

(١٠) لمزيد تفاصيل عن هذا الصراع انظر:

(١١) مصطفى مسعد: البجة والعرب في العصور الوسطى ص٥٩، بحث منشور بمجلة كلية الآداب،جامعة القاهرة، المجلد ٢٢،العدد الثاني ديسمبر ١٩٥٩م.

(١٢) نزهة المشتاق ج١،ص٢٧، روما، ١٩٧٠م.

(١٣) المصدر السابق، ص٢١.

(١٤) ابن الوردي (عمر بن حفص): خريدة العجائب وفريدة الغرائب، ورقة٥٠ مخطوطة بقسم المخطوطات، المكتبة المركزية، جامعة الأمام محمد بن سعود الإسلامية رقم (٦٣٣٩).

(١٥) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج١، ١٩٢.

(١٦) ابن الوردي: خريدة العجائب، ورقة ٥٠.

([١٧]) القزويني: آثار البلاد، ص١٨.

([١٨]) ابن الفقيه (أحمد بن إسحاق): مختصر كتاب البلدان،ص٨٧، نشر د. يخويه، ليدن، ١٣٠٢هـ. ظلت هذه الأسماء تطلق على البحر الأحمر حيث كان يسمى بحسب المدينة أو البلد الذي يطل عليه أو يكون قريبا منه (انظر الفصل الرابع) ، تقوية النفوذ الإسلامي في البحر الأحمر.

([١٩]) محمد عوض محمد: السودان الشمالي، ص ٣٠ – ٣١.

([٢٠]) العلاقي: وادي يقع غرب جبال البحر الأحمر ضمن مناطق البجة وعرفت أراضيه واشتهرت بما تحتويه من معادن نفيسة مثل الزمرد والذهب وقد أصبحت منطقة جذب للتجار المسلمين وللرحالة، ازدادت شهرتها حين أقامت بها قبيلة ربية العربية وصاهرت من بها من قبائل البجة، حتى إذا تمكنت أقامت إمارتها الأولى بها قبل انتقالها إلى مدينة أسوان سنة ٣٥٥هـ /١٩٦٥م (ابن حوقل، أبو القاسم بن حوقل): صورة الأرض، ص ٤٥،لين ١٩٣٨م)، المسعودي (على بن الحسن بن على): مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج٣، ص٣٣، دار الأندلس للطباعة ، والنشر، بيروت، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م).

([٢١]) محمد عوض: السودان الشمالي، ص ٢٣ – ٢٤.

([٢٢]) هي الأراضي الخصيبة الواقعة بين نهر اتبره – عطبرة – وبين النيل الأزرق.

([٢٣]) المرجع السابق، ص ٣٠ – ٣١.

([٢٤]) ابن سيد الناس: السيرة النبوية، ج١، ص ١٥٢، – الحميري (محمد بن عبدالمنعم): الروض المعطار في خبر الأقطار، ص ٤٢٣ – ٤٢٤ تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت ١٩٨٤م.

([٢٥]) محمد عوض: السودان الشمالي، ص ٢٨.

([٢٦]) ميناء تجاري مهم يقع على الساحل الشرقي للبحر الأحمر، شهد صراعات عديدة في التاريخ، ضمه العثمانيون لهم وأقاموا فيه قواعد حربية تأميناً للتجارة ومنافذها، وذلك إبان سيطرتهم على المنطقة.

([٢٧]) أحمد فخري: دراسات في تاريخ الشرق القديم، ط٢، ص ١٣٤، ١٣٦، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٦٣م.

([٢٨]) دهلك: اسم أعجمي معرب لجزيرة في بحر اليمن، ومرسى بين بلاد اليمن والحبشة، كان بنوا أمية إذا سخطوا على أحد نفوه إليها، قال الشاعر:

وأقبح بدهلك من بلدة فكل أمرئ خلالها هالك

كفاك دليلاً على أنها جحيم وخازنها مالك

الحموي (ياقوت أبو عبدالله): معجم البلدان،ج٤ص٨٢٠، طهران. ١٩٦٥م.

([٢٩]) المقريزي (أحمد بن علي): المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج١، ص١٩٥، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٣٧٠هـ.

([٣٠]) ابن سليم الأسواني (عبدالله بن أحمد): أخبار النوبة والمقرة وعلوة والبجة والنيل عن المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، للمقريزي) ، ج١، ص١٩٣، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٣٧٠هـ.

([٣١]) ابن عبدالحكم (عبدالرحمن بن محمد): فتوح مصر، ص ١٨١،مكتبة المثني، بغداد،ابن سليم الأسواني: أخبار النوبة والبجة،ج١،ص٩٣ – ٩٤.

([٣٢]) عرفت منطقة وادي النيل ثلاث ممالك تقع جنوبي مصر باسم النوبة يمتد الإقليم الأول منها من التقاء النيلين الأبيض والأزرق جنوباً إلى مدينة دنقلة شمالا وهي مملكة علوة، ويمتد الأقليم الثاني منها من دنقلة جنوبا إلى حلفا شمالا وهي مملكة المقرة، أم الأقليم الثالث فيمتد بين وادي حلفا جنوبا إلى أسوان شمالا وهي مملكة نوباتيا (مصطفى مسعد: الإسلام والنوبة في العصور الوسطى، ص مكتبة الإنجلو المصرية، ١٩٦٤م).

([٣٣]) ابن عبدالحكم: فتوح مصدر، ص ١٨٩.

([٣٤]) الواقدي (محمد بن عمر): فتوح الشام، ج٢، ص٣٩، مطبعة مصطفى الحلبي، مصر، ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٦م.

([٣٥]) المصدرالسابق، ج٢، ص ٣٨،ابن سليم الأسواني: أخبار النوبة، ج١ص٩٣ – ٩٤.

([٣٦]) الواقدي: فتوح الشام، ج٢، ص٣٠.

([٣٧]) المصدر السابق: ج٢، ص٣٩.

([٣٨]) (عن جونتاني فانتيني تاريخ المسيحية في الممالك النوبية والسودان الحديث – الخرطوم ١٩٧٨م).

([٣٩]) ابن عبدالحكم: فتوح مصر، ص ١٦٩.

([٤٠]) البلاذري (أحمد بن يحيى): فتوح البلدان، ص ٢٨٠، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٥٦م.

([٤١]) هو عبدالله بن سعد بن الحارث بن حبيب بن جزيمة بن مالك بن سهل بن عامر بن لؤي القرشي العامري – قريش الظواهر وليست قريش البطاح – أخو الخليفة الراشد عثمان بن عفان – رضي الله عنه – من الرضاعة، أهدر رسول الله ﷺ دمه فاستجار بعثمان يوم الفتح، فقبل النبي ﷺ ذلك إكراما لعثمان، وأسلم وحسن إسلامه، وكان من كتاب الوحي، وروى بعض الأحاديث عن النبي ﷺ، ولاه عثمان مصر سنة ٣٥هـ، وفتح إفريقية، شهد صفين واعتزل الفتنة وقيل لم يشهدها، توفي بالرملة، وقيل بعسقلان ٣٧هـ ، وقيل بل سنة ٥٩هـ في أواخر عهد معاوية بن أبي سفيان – رضي الله عنه – (محمد بن سعد بن منيع: الطبقات الكبرى، ج٧، ص٤٩٦– ٤٩٧، دار صادر، بيروت، ١٣٨٠هـ، الذهبي: سير أعلام النبلاء،ج٣، ص ٣٤، مؤسسة الرسالة، ١٩٨١م).

([٤٢]) الدمشقي (محمد بن طالب الأنصاري): نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، ص٢٦٩، مكتبة المثنى، بغداد (بدون تاريخ).

([٤٣]) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج١، ص٢٠٠.

([٤٤]) ابن سليم الأسواني: أخبار النوبة والبجة(عن المواعظ والاعتبار) ، ج١، ص١٩٤

([٤٥]) الطبري (محمد بن جرير): تاريخ الأمم والملوك، ج ص، تحقيق محمد ابو الفضل إبراهيم، دار سويدان، بيروت، ١٩٦٧م

([٤٦]) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج١، ص ٢٠٠.

([٤٧]) المصدر السابق: ج١، ص ٢٠٠.

([٤٨]) البلدان، ص١٢١.

([٤٩]) المصدر السابق: ص١٢١.

([٥٠]) المصدر السابق: ص١٢١، المسعودي: مروج الذهب، ص ٤٤، ٤٥.

([٥١]) المصدر السابق: ص ٤٥.

([٥٢]) المصدر السابق: ص ٤٦.

([٥٣]) المصدر السابق: ص٤٧

([٥٤]) المصدر السابق: ص ٤٦، اليعقوبي: البلدان، ص١٢١.

([٥٥]) المواعظ والاعتبار، ج١، ص٢٠٩

([٥٦]) الإدريسي: نزهة المشتاق، ص٢٢،ابن مماتي: قوانين الدواوين، ص٨١ تحقيق عزيز سوريال عطية، القاهرة، ١٩٤٣م.

([٥٧]) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٣، ص٢٨٦.

([٥٨]) ابن الوردي: خريدة العجائب، ورقة ٥١.

([٥٩]) البلدان، ص ١٢١

([٦٠]) ابن حوقل: صورة الأرض، ص٥٤

([٦١]) الطبري: تاريخ الأمم والملوك،ج٣، ص١١٣

([٦٢]) المصدر السابق: ج٣، ص١١١.

([٦٣]) ابن حوقل صورة الأرض ، ص ٥٤.

([٦٤]) انظر الفصل الأول من البحث حملة محمد بن عبدالله القمي.

([٦٥]) عوض خليفات : مملكة ربيعة العربية، ص٦٣، ٦٤.

([٦٦]) الطبري: الأمم والملوك، ج٣، ص١١١.

([٦٧]) ابن الوردي: خريدة العجائب، ورقة ٥١.

([٦٨]) المسعودي: مروج الذهب، ج٣، ص ٤٣، ٤٤.

([٦٩]) المصدر السابق، ج١، ص١٩٣.

([٧٠]) اليعقوبي: البلدان، ص ١٢٠، ١٢١.

([٧١]) المقريزي: البيان والاعراب، ص١٥.

([٧٢]) المقريزي: البيان والاعراب، ص١٥

([٧٣]) اليعقوبي: كتاب البلدان، ص ١٢١

(٧٤) معجم البلدان: ج٣، ص٧.

(٧٥) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج١، ص٢٠٩.

(٧٦) ابن سليم الأسواني: أخبار النوبة والبجة، (عن المواعظ والاعتبار) ، ج١، ص٢٠٣.

(٧٧) المسعودي: مروج الذهب، ج٣، ص٤٤.

(٧٨) المسالك والممالك، ص٣٥.

(٧٩) سفر نامة، ص١١٧.

(٨٠) المصدر السابق، ص١١٨.

(٨١) رحلة ابن جبير، ص ٤٥.

(٨٢) مستفاد الرحلة، ص٢٢٥.

(٨٣) المواعظ والاعتبار، ج١، ص٣٠٢.

(٨٤) القاسم النجيبي: مستفاد الرحلة، ص ٢٢٥.

(٨٥) ابن حوقل: صورة الأرض، ٥٢.

(٨٦) صلاح الدين الشامي: الموانئ السودانية، ص٨٤.

(٨٧) اليعقوبي: البلدان، ص ١٢٣، مصطفى سعد: البجة والعرب، ص٤٢: صلاح الدين الشامي : الموانئ السودانية، ص٨١.

(٨٨) ابن حوقل : صورة الأرض، ٥٣.

(٨٩) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ص ٤٩ . أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٢، ص٣٩٧.

(٩٠) ابن حوقل: صورة الأرض، ص ٥٢.

(٩١) اليعقوبي: البلدان، ص ١٢٣، ابن سليم الأسواني: أخبار النوبة والبجة، (عن المواعظ والاعتبار) ، ج١، ص ١٩٧.

(٩٢) اليعقوبي: البلدان، ص ١٢٣ . أبو الفداء :تقويم البلدان، ص١٢١.

(٩٣) المقريزي: المقفي، ورقة ١٦٥.

(٩٤) أحمد دراج: عيذاب، ص٥٧، مقال بمجلة نهضة إفريقيا، عدد ٩، ١٠، يوليو، أغسطس، وزارة الثقافة . القاهرة، ١٩٥٨م

([٩٥]) المرجع السابق، ص٥٨.

([٩٦]) بشير إبراهيم بشير:عيذاب، ص٥٤.

([٩٧]) انظر الصفحات التالية توسع حركة التجارة وازدهار طرق القوافل.

([٩٨]) ابن جبير: الرحلة، ص٦٣.

([٩٩]) الحميري: الروض المعطار، ص٤٢٤.

([١٠٠]) ابن بطوطة: الرحلة: ص ٢٤٥، ناصر خسرو: سفرنامة، ص٧٣.

([١٠١]) ابن جبير: الرحلة، ص٧٠.

([١٠٢]) اليعقوبي: البلدان، ص١٢٤.

([١٠٣]) المقريزي: اتعاظ الحنفاء، ج٣، ص ٢٤٥.

([١٠٤]) المقريزي: السلوك، ج٢، ص١٦٢.

([١٠٥]) القاسم النجيبي: مستفاد الرحلة، ص.

([١٠٦]) انظر الفصل الثالث "أثر التجار في نشر الإسلام".

([١٠٧]) ابن الوردي: خريدة العجائب، ص٤٤، ٤٥.

([١٠٨]) ناصر خسرو: سفرنامة، ص ٧٢.

([١٠٩]) مصطفى مسعد: الإسلام والنوبة، ص١٤٣.

([١١٠]) ناصر خسرو: سفرنامة، ص٧٢.

([١١١]) المصدر السابق، ص٧٣.

([١١٢]) المصدر السابق، ص ٧٣.

([١١٣]) ابن جبير الرحلة، ص ٣٠، ٣١

([١١٤]) المسعودي: مروج الذهب، ج١، ص١٠٩.

([١١٥]) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٣، ص١٨٢.

([١١٦]) المصدر السابق.

([١١٧]) صبح الأعشى، ج٥، ص٢٧٤.

([١١٨]) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج١،ص١٩٧.

([١١٩]) المصدر السابق: ج١، ص٢٠٢.

([١٢٠]) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٥، ص ٢٧٤.

([١٢١]) دائرة المعارف الإسلامية، مج١٢، ص٣٢٢.

([١٢٢]) ابن بطوطة: الرحلة، ص ٢٤٥.

([١٢٣]) الحميري: الروض المعطار، ص ٣٣٢.

([١٢٤]) المقريزي: السلوك، ج١، ص٥٠٦.

([١٢٥]) ابن حوقل: صورة الأرض، ص ٥٣، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٣، ص ١٨٢، ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، ص ٢٤٥.

([١٢٦]) ابن حوقل: صورة الأرض، ص٥٣.

([١٢٧]) ناصر خسرو: سفرنامة، ص٧٣.

([١٢٨]) تنقسم هذه التحركات بحسب دوافعها لثلاثة أنواع، وهي: تحرك عام يتم في حالات الجفاف الشديد، وتحرك يومي ويتم غالبه بين الوديان والجبال تتبعاً للكلا والعشب، وتحرك محدود يتم في المواسم المختلفة (إدريس الحسن: البجة في شرق السودان، ص٦١).

([١٢٩]) ابن جبير: الرحلة، ص ٦٥.

([١٣٠]) الحميري: الروض المعطار، ص٨٤.

([١٣١]) ابن حوقل: صورة الأرض، ص ٦٢.

([١٣٢]) المصدر السابق: ص ٦٢،ابن جبير: الرحلة، ص٦٩.

([١٣٣]) المصدر السابق: ص ٦٢

([١٣٤]) ابن الوردي: فريدة العجائب، ورقة ٢٣.

([١٣٥]) ابن حوقل: صورة الأرض، ص ٦٣.

([١٣٦]) ابن جبير: الرحلة، ص٦٩.

([١٣٧]) الرحلة، ٦٩

([١٣٨]) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج١، ص٢٠٦

([١٣٩]) انظر الصفحات التالية "ظهور جبل المولدين".

(١٤٠) المسعودي، مروج الذهب، ج، ص.
(١٤١) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج١، ص٢٠٦
(١٤٢) إدريس الحسن : البجة في شرق السودان، ص٦٠
(١٤٣) انظر الصفحات التالية "الآثار الاجتماعية".
(١٤٤) ابن سليم الأسواني: أخبار النوبة، عن المواعظ والاعتبار، ج١، ص١٩٦.
(١٤٥) ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان، ص٧٨.
(١٤٦) البلدان: ص ١٢٣.
(١٤٧) القاسم التجيبي: مستفاد الرحلة، ص٢٠٧.
(١٤٨) ابن جبير: الرحلة، ص ٢٩.
(١٤٩) المقريزي: المواعظ والاعتبار،ج١، ص٢٠٦.
(١٥٠) القاسم التجيبي: مستفاد الرحلة، ص ٢٠٧.
(١٥١) المصدر السابق: ص٢٠٨.
(١٥٢) الإدريسي: نزهة المشتاق ، ج١ ، ص٤٢.
(١٥٣) القاسم التجيبي: مستفاد الرحلة ، ص ٢٠٨.
(١٥٤) المقريزي: المواعظ ، ج١ ، ص٢٠٦.
(١٥٥) ابن جبير: الرحلة ، ص٧٠
(١٥٦) المصدر السابق ، ص ٦٨.
(١٥٧) ابن بطوطة: الرحلة ، ص٢٤٥.
(١٥٨) ابن بطوطة: الرحلة ، ص ٣٤٤.
(١٥٩) ابن جبير: الرحلة ، ص ٧٠.
(١٦٠) القلقشندي: صبح الأعشي ، ج٥ ، ص٢٧٤.
(١٦١) الحميري: الرض المعطار ، ص ٣٣٢.
(١٦٢) اليعقوبي: البلدان، ص ١٢٣، الإدريسي: نزهة المشتاق ، ج١ ، ص٤٢